
الرجال
Y
كريم الصياد

الكتاب : الرجال Y (مجموعة قصصية)
المؤلف : كريم الصياد
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٣٣٢٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 019 - 5

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)
www.shams-group.net

تصيم الغلاف: محمود ناجيه

الرجال Y

مجموعة قصصية

كريم الصياد



إهداء..

إلى إيمان

الترسيب

" لم يعد يلتفت، ينظر إلى السقف ويأتي بإيماءات رمزية، عيناه لم تعد لهما صلة بأعين البشر، زبيبتان كبيرتان تُرصِّعان وجهًا يختلف جدًا عن وجهه القديم، يا له من بسكويت!"

(١)

صباحٌ لا مراء فيه، كالنبوَّة، لماذا أفتتن بضوء الشمس بعد طول هذا العمر، عمري، وعمر الشمس، وعمر الأرض، وعمر الإنسان؟ كثيرًا أتساءل عن مشهد تلك الشمس التي سطعت على الديناصورات، أو على وجه إنسان نياندرثال، شمس لم تكن قد علاها صدأ الحضارة وعادم السيارات والطائرات، لم تكن ضعفت بطاريتها، ربما لم تكن في المتناول إلى هذا الحد، ربما كانت بعيدة

جدًا كالنجوم، أو قريبة تلمس الأرض بألسنة لهيبها، كنت أتبع شعاع الشمس الوليد وهو يتسلل إلى حجرتي الصغيرة الباردة مغلقة النوافذ الزجاجية كحوض السمك، أنا سمكة في حوض، ربما يداعبني الملائكة بالطَرق على زجاج الحوض بأطراف الأنامل، ربما يتسلون بتأملي ضوء الشمس ودهشتي المتكررة كل صباح.

كما ترون.. هذه حجرة معيشتي، أعيش فيها وحدي بلا امرأة، وبقليل من الأشياء، استمتع بالاستماع إلى الفراغ ومشاهدة الصمت، أتريدون شايًا؟ لديَّ أكوابٌ محدودة لا أستعمل أغلبها، إنها تلعب دور الثُريا حين تنعكس عليها الشمس الطفلة ذات اللثغة، لماذا تنطق الشمسُ السينَ ثاءً في الصباح؟

من يرد استعمال الحمام منكم فهو على اليمين، أنت.. أرجوك لا تدخل هناك، تلك حجرة الفحص، هذه عيادة خاصّة كما تلاحظ، لن أعيد ترتيبَ كل ما تعبث به، لقد فرغتُ توًّا من ترتيب العالم الذي بعثره يونسكو وبيكيت وكامو أمس، أنا لا أطيق الفوضى.

لن يأتيني أحد قبل انتصاف النهار، لماذا يلتئم النهار كلما انتصف؟

هدوء..

لا شيء..

النقاء الكوني..

وحدة الوجود الحقة أن توجد وحدك.

المتصوّفة يصعدون سُلمًا لا ينتهي.

هيجل غامض.

يحب المثلثات.

يكره رائحة الدخان.

ماركس لا يحب الدخان.

لكنه يؤمن أن الفكر ناتج احتراق المخ.

كل هذا كلام فارغ.

الحقيقة تُخلق هنا.

الألم البشري هو الحق.

وأنا الكاهن.

هدوء..

لا شيء..

النقاء..

كل ممتلكات الله في أمان.

لماذا يلتئم النهار؟

لن يأتيني أحد قبل انتصافه.

ماذا لو لم ينتصف؟

....

دعوني أعدّ لكم شايًا.

(٢)

غريب! أنتم تسمعون ذلك بلا شكّ..

خطوات مريضٍ يصعد درجي، أحدهم يطلب الكاهن، لا أحد في هذا الطابق المرتفع غيري، لا أحد في هذه السماء سواي، ماذا لو صدر قرار إزالة للسماء الزائدة؟ أأجد نفسي في الأرض؟ أتمنى ألا يصل البشر إلى هذا المستوى من الروتين.

أحدهم قادم قبل انتصاف النهار، أحدهم يعاني من حالة وَحْي متقدمة، إنه يتألم، أشعر بألمه في الأرضية، في سور الدرج، في ملامسة سبابته لمفتاح الجرس، كل شيء عبارة عن ذبذبات أوتار، هكذا فهمتُ نظرية الوتر الفائق.

لا أذكر كيف استقبلتُه، ها هو جالس أمام مكتبي، وجهٌ كوجوه الدمى، وسيم كأنه مرسوم، رجل في منتصف العمر، تحدثتْ النظرات: أنا مريض - أنا أعرف - أنا أعرف أنك تعرف - أعرف أيضًا أنك خائف - هل تحب الموسيقى الكلاسيكية؟ -لا تدَّع اتساع الأفق لأنك ضحل الروح، إن روحك لا تعلو جلدك سوى بملليمترات قليلة، حتى إنني أراه بوضوح، وجوه الدمى من أمثالك يصلحون للعرض فقط، وادعاء البراءة أمام الأطفال، والأناقةِ أمام الكبار،

والحياة أمام الجميع، لا أعرف لماذا كانت تبدو عينا هـذا الرجـل حين تثبتان كعينيْ ميتٍ.

هدوء.. لا شيء..

إنني أتلقى وَحْيه، الألم وَحْي يُسمع بالجلـد ويُكتـب بالأعصـاب، غريبٌ ألم هذا الرجل! كأنما يُعزف على أرغـن متحشـرج، آلاف القصبات الصائتة المكتومة، كآلاف المزامير التي وقفت في حلوقها تفاحات آدم، حين حرك فاه لينطق أدركت المشكلة، إنه يحرك فكيه بخشونة كأنما يمضغ حجرًا، ملامحه نفسها متصـلبة توشـك أن تنكسر، حالة تصلب عامة في الجلد والعضلات، مع ذلـك غريبـة جدًا بالنسبة لي.

- أنا أعاني من تكلسات يا دكتور.

= ما معنى تكلسات؟

- مركب ما يدخل فيه الكالسيوم، لا أدري بدقة، أنا أتغيّر.

= تعني أنك تتكلس؟

- لم أقل غير هذا.

= لأنك لا تعرف هذا، سنأخذ عينةً، والآن.. دعني أعد لك شايًا.

-لا داعي أرجوك.

وغاب الرجل، حين يرحل المرضى يرحلون كالموتى، لم أذكر قـط مشهد أي مريض وهو ينصرف ولا وقع رجليه.

مرّ يومان، وجاء تقرير فحص العينة كالتالي:

- Flour ...%

- Sugar ...%

- Baking powder ...%

- Salt ...%

- Albumin ...%

- Oil ...%

- Vanilla ...%

- Orange juice ...%

- Butter ...%

- Red raspberry preserve ...%

- Ground nuts ...%

- Raisins ...%

دقيق؟ سكر؟ بيكنج بودر؟ ملح؟ هل هذه مركبات العينات التي أخذتها من جلده وفمه؟ سأغيب قليلاً عن المشهد، يجب أن أسأل المعمل، أن أفكر، أن أبحث عن مرض يحوِّل الإنسان إلى بسكويتة مملحة.

(٣)

باخ يجلس على الأرغن ويعزف المزامير.

باخ الذي يسبّح الأرغن بين يديه.

قد عاد الرجل.

(٤)

حين عاد كان أكثر بطئًا، أكثر تصلبًا، وأكثر معاناة حـــين الكـــلام، تحدثتْ النظرات: دعني أعد لك شايًا - لا داعي أرجوك.

حين صافحته لاحظت خوفه، لاحظت أيضًا بعض الفتات، مرحـــى! اجلس ودعني أخفك بما اكتشفته.. طبعًا لم يجلس..

- ظهري يا دكتور، أخشى أن..

= فلتنم على سرير الفحص مفرود الظهر، لا داعي أن تبقى واقفًا إلى الأبد.

- أنت لا تدري حالة ظهري يا دكتور.

فعلاً لم تكن لديّ فكرة، هذا غريب أيضًا، خشـــونة ظـــاهرة، بـــل نقوش سطحية، كأنها خطوط طولية متصلة، ربما تقطعها خطـــوط عرضية أو منحنيات، لست أدري، أيًا كان هذا فهو جميل.

= هذا جديد.

- هناك جديد آخر، عيناي تجحظان.

= أنت واعٍ بجسدك كعارضة أزياء.

- كلا يا دكتور، إنهما تؤلمان، كما أنني لم أعد أستطيع تحريكهما.

فعلاً منذ جاء هذه المرة وهو يلتفت بمجمل رأسه.

- هذا التقرير ليس فيه جديد يا دكتور، إنني أذوق فمي بنفســـي، هذا لا يعني أنني لست خائفًا، لكنني أتصلب وأخشى أن أكسر شيئًا يصعب إصلاحه.

= أريد وقتًا لسؤال زملائي، لأنْ أفكر، لأبحث عما يجب أن أبحـــث عنه، ذُبْ الآن، ودعني أعد لك شايًا.

- هل تسخر منّي؟!

(٥)

لا جديد، الرجل يزداد بسكويتًا، عرفت أن تاريخه المرضي تضمنَ السكّريّ، لم أعد أستقبل أحدًا غيره.

سأعرف ماذا حل به، الآن أو فيما بعد، لو مات سـأحتفظ بجثتـه لأفهم، لا أحد يُعاقب على الاحتفاظ ببعض البسكويت.

(٦)

مرضٌ غريب، طبعًا مع ندرة الحالة وتدهورها السريع لن نعـرف كيف يحدث، لكنه يشتمل على ترسيب مركبـات الـدقيق والسـكر والزيت والعصير..إلخ، في الجلد ثم ما تحته حتى يصل إلى العظام والأعضاء الداخلية، بالضبط كما يقوم الجسـم بترسـيب أمـلاح الحصوات، ربما لو أمكن أن نعكس الترسيب... لكن هذا أشبه بأن نحاول إعادة بيضة مقلية إلى حالتها الأولى.

فكرت في هذا وأنا أمام سريره، لم يعد يغادره، كما أنه ينام علـى الأخشاب مباشرة ليتجنب الانكسار، لقد صار هشًا، لم يعد يلتفـت، ينظر إلى السقف ويأتي بإيماءات رمزية، عيناه لم تعد لهما صـلة بأعين البشر، زبيبتان كبيرتان ترصعان وجهًا يختلف جـدًا عـن وجهه القديم، يا له من بسكويت!

نقوش جميلة تملؤه، على الأقـل لـيس رديء الصـناعة علـى الإطلاق، نظرتُ في عينيه الرمزيتين الرهيبتين، إنـه يرانـي ولا أعرف كيف يراني، لكنه لا ينفعل، إنه لا يفعل أي شيء سـوى أن يترسّب، هذه فلسفة جديدة.
الوجود عملية ترسيب.

(٧)

لا جديد، الترسيب يستمر بمعدل ثابت والرجل يدنو مـــن التحـــول الكامل، لا أدري إن كان هذا سيؤدي إلى وفاته أم لا، لكـــن هـــذا أسوأ شيء، إنه يتآكل بشريًا ويمتلئ بالدقيق والسكر.

هذا مضحك!

(٨)

يا للأسف!

الآن لا داعي للبحث عن علاج، لقد فقد ساقًا وذراعًا..

في قصة الأنفس الميتة لجوجول قال مدير مكتب البريد أن البطل الذي شاهده الناس سليمًا مرارًا كان مجنَّدًا حارب في حرب ١٨١٢ وفقدَ ساقًا وذراعًا، فضحكوا منه، لا أعرف لماذا تذكرت هذا الموقف بالذات وأنا أرمق الفراش الذي تناثرت عليه الفُتات حول الجسد الناقص، عينه أيضًا اختفت، والأخرى لم تعد في مكانها.

إنه النمل! هذا ما لم أحسب حسابه..

في (فاصلة إيقاعات النمل) لمحمد عفيفي مطر يُعيد النمل تكوين العالم المتفتت، هذا تنويع مبتكر على سفر التكوين، سفر تكوين حشري، يحدث الآن الأمر بالعكس، إنها ميتة غريبة، هل ثمة علاقة بين داء السكريّ وما تعرض له الرجل من ترسيب؟

لن أعرف أبدًا.

• • •

رُوتِيلا دُورا

"منذ عشرة أعوام كاملة فهم أخي سر ما يعانيه، ودوَّنه في أوراقه بخط يمزج الجنون بالطفولة.. لقد كان عملاً بطوليًا وهو يعاني الجنون والطفولة المتزايدة من أجل بحثه المصيري عن الهويّة."

منذ أعوام حكى أخي عن تلك الحشرة..

كان أخي الأكبر منذ عشرة أعوام ونيف يدْرس علوم الأحياء في إحدى كليات الأقاليم، لم يكن موفقًا جدًا في الدراسة، كان يكره دراسته، والبيئة نصف الريفية التي هي نوع خاص من عشوائية زحف الطبيعة الريفية المجاورة على مدينة الإسمنت وأرض الإسفلت، كان يكره الطبيعة البرية الزراعية التي كأنما تهدد وجوده من بعيد، وتشعره أنه إنسان صناعي غريب عن هذا العالم، وازدادت كراهيته للعِلْم من كراهيته لذلك العالم الذي وجد نفسه فيه مضطرًا للحياة والصراع والنجاح.

كم سهرنا ليلاً في نهاية كل أسبوع ليحكي لي عن تلك البيئة المغايرة لمن تعوَّد حياةَ المدينة على صخبها وسرعتها وازدحامها، والغريب أنه كان يجد حياة الريف أكثر عسرًا وخشونة بكثير، بل وأكثر تلوثًا، وكان يعتبر حياة المدينة حياةً معقّمة أكثر أمنًا من الناحية الصحية، أقول هذا لأنني لم أكن أصدقه.

قبيل سفره الأول إلى كليته بالقرب من الأرياف لم يكن يطيق حياة المدينة أيضًا، وكان يتمنى مُبيدًا بشريًا للخلاص من جميع مشكلات العالم دفعة واحدة، حتى ظننت - وظنَّ - أنه سيجد خلاصه في البُعد عن المدينة، ذلك الخلاص الذي لم يتحقق على الإطلاق.

لم أعرف المشكلة بالضبط، لكنه ازداد مع الفصول الدراسية الأولى انطواءً وعزلة، وأصبح قليل المرح والكلام والأكل، وزاد من عجبي شكايته المستمرة من التلوّث هناك أكثر من شكايته من صعوبة الدراسة، وكنت أسأله عن أي تلوث يتحدث، فيصمت. لكني كنت أعرف أنه سيتكلم، الصمت والموت لا يستمران إلى الأبد، هذه من المسلَّمات البشرية الغريزية، وبالرغم من ثقتي تلك إلا أنني كنت أتعجل اعترافه، فقد صار غريبًا، شيئًا فشيئًا أشعر بآخَر، لا أدري كيف أوضح، لكنه تدريجيًا لم يعد نفسه، وبدا لي أنه مع الوقت يصل إلى النتيجة نفسها، أية لحظات رهيبة تلك التي كنت أراه فيها يقف لدقائق وحيدًا أمام المرآة، وجهه يحمل نظرة

سوداء تمزج الحزن بالتوجس بالحيرة، ثم يتحرك، فإذا ما خــرج ورآني نظر لي نظرة حائرة زائغة، فكرة حمقاء راودتني، لو كـــان قد جن فأنا أكثر جنونًا، دخلت مرة الحجرة فور خروجه ونظــرت إلى المرآة بعدما تأكدت من غيابه، طبعًا لم أرَ غيري.

حتى كانت تلك الليلة التي بدأ فيها السر يكشف عن ذاتـــه، كـــان نائمًا وكنتُ ساهرًا إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، كان كـــل شيء هادئًا والوقت في مكانه، وفجأة أحسست بجلدي ينتفض، لقد صرخ أخي فجأة بأعلى صوته وهو نائم:

- "يا ناااااااس"

كان قلبي قد اختلَّت ضرباته لحظة، لم يكن عمري في تلك الآونـــة يتجاوز السنوات العشر، لكنني أذكر بوضوح نبرة صوته، وهرولة أمي إلى الحجرة في فزع، وحين جلستْ إلى جواره كـــان يحـــدق فيها مشدوهًا فزعًا، وهي تسأله عما حدث، كـــان يرتجـــف، لكـــن رجفته لم تمنعه من أن يقول كلمة واحدة:

-"الحشرة"

وبالرغم من سني الصغيرة فقد استغربت رد فعـــل أمـــي، حيـــث ازدردتْ ريقها، ثم سألت في توجس:

-أية حشرة؟ قل.. ما شكلها؟

لكنه ظل صامتًا.

وفي الوقت الذي كانت الأمور فيه تزداد ألغازًا استطعت أن أعرف جزءًا من الحقيقة، لقد كانت جلسة مطوّلةً بين أخي وأمـــي، كـــان يحكي لها كيف أنه كان في أحد الاختبارات في كليته يجلس جـــوار النافذة الزجاجية، وكيف انتفض فجأة حين سمع شيئًا ثقيلاً يرتطم بالزجاج من الخارج، فحدق لثوانٍ دون أن يتبين كُنه هذا الشيء، جسم أحمر زاهٍ مشعر بحجم قبضة اليد، ذو ستة أقدام ثابتة علـــى الزجاج من الخارج، لم يفهم شيئًا حتى بدأ الشيء يتحرك في بطء وأدرك أنه انحبس بين لوحي الزجاج المتحركين أفقيًا، ثم تحـــرك الجسم إلى حافة اللوح حتى وجد المخرج، ومن ثم فـــرد أجنحتـــه وطار إلى الحقول البعيدة.

بعد ذلك بدأ يرى الحشرة في كل مكان، خمّن أنها شكل من أشكال الحياة الغريبة المتناثرة هناك، لكنه بحث في مراجعه وعلى شـــبكة الإنترنت كثيرًا دون أن يجد شيئًا مشابهًا، وكان يؤكد أنها مغطـــاة بالشعر، ومع ذلك تبدو في بعض أجزائها مغطاة بجلد تنبض تحته بعض العروق، يبدو أنه رآها كثيرًا فعلاً، كانت تنتظره كـــل ليلـــة حين يعود إلى سكنه المؤقت في الريف، لا يعرف كيف دخلت فـــي كل مرة، يراها على إحدى المناضد، أو الكتب، أو حين يذهب إلـــى الفراش على الملاءة، يراها للحظة كأنما جاءت لتلقي عليه نظرة، ثم تطير إلى غرفة أخرى فلا يجدها ثانية في الليلة نفسها، ســـأل عنها الناس، سأل رفاقه في الكلية حين يراها في قاعـــة الـــدرس،

لكنهم اتهموه بالتخريف، لا وجود لشيء كهذا، لا في السكن، ولا في الكلية، ولا في المراجع، ولا في العالم، لكنه كان موقنًا أنها موجودة.. في الليلة المذكورة حلم بها في كل مكان، تطير في الهواء، تمشي على الأرض، على الجدران، تدخل وتخرج من النوافذ، تحط على أكتاف ورءوس الناس في الشوارع، لكن أحدًا لا يبصرها غيره.

كان يصفها باكيًا:

- إنها بشعة، ضخمة، مغطاة بشعر وجلد، تترك أقدامها الخدوش على كل شيء، الزجاج، الجدران، تهتّكُ قماش الملاءات التي تقف عليها، لقد.. لقد.. انظري.. الخدوش على ذراعي وعنقي، هذا دليل أنها موجودة، أنا لا أتوهم.

- نعم أنت لا تتوهم.

- لكنني خائف.

كثرت مناقشاته مع أمي، وعرفتُ معظم ما عرفتُه من هذه القصة من وراء الباب المغلق، كانا يرفعان صوتيهما بلا حذر، فقد كنت طفلاً، وكان أبي متوفيًا منذ زمن بعيد، كانت لهجة أخي مع الأيام تزداد حدة مع أمي وهو يتهمها بشيء لا أفهمه، وكان أحيانًا يهتف:

- أنتِ مِن هناك، لم تقولي إنك من هناك.

صار مهووسًا بعلم الحشرات، عشرات الصفحات من الشبكة تتزاحم على شاشة الكمبيوتر، وكلها مصطلحات وصور لحشرات متنوعة، كانت أمي تنصحه بالعودة إلى دراسته، لكنه كان يصرخ:

- أعود لهذا العالم الملوّث؟

وكلما ازداد صراخًا ازدادت توسلاً، كما لاحظتُ أن شعر لحيته وشاربه يتساقط أو يقلّ، لقد بدأ يتحول إلى شاب أمرد، وكنت أرى ذلك طريفًا، وكان هو يراه شيئًا متوقعًا، لقد كانت أيامًا سوداء، كانت أمي تبكي بلا انقطاع، وهو يزداد عصبية، ويوشك أن ينهار، ونظراته أمام المرآة تزداد دهشة، صار مغلقًا رهيبًا مربدّ الوجه، لا يطيق أحدًا أو شيئًا، وكنت أتعامل معه ومع أمي في تلك الفترة بكثير من الخوف، وضاع الأمان من عالمي، فجأة أحسستُ أن لي عالمًا خاصًا بدوري، وأنني مثل الكائن الرخو في القوقعة عليَّ ألا أمد زوائدي خارج حدود جسدي ونفسي كيلا أتألم، وكنتُ أظن أن كل ما يحدث على غرابته ولحداثة سني مشكلة تقليدية بين أخي وأمي، حتى ألقيت نظرة ثانية على المرآة.

هذه المرة استطعت اختلاس نظرة واضحة للمرآة أثناء تأمل أخي لنفسه فيها، فماذا رأيت مختلفًا عن المرة الأولى؟ لا شيء مختلف، بمعنى الكلمة، أي أنني رأيت نفسي في المرآة مكان صورته، وبعد انصراف أخي تأملت صورتي في المرآة مرة أخرى لأجدها مطابقة عدا الملابس فحسب، لم أفهم أي شيء، لماذا

تتحول صورة أخي في المرآة لصورتي؟ لكنني ربطت هذا تلقائيًا مع تساقط شعر لحيته وشاربه وتحول ملامحه التدريجي الطفيف، إن أخي يرى صورتي في المرآة، ويتحول إليها ببطء، ويمكن القول إنه لا يتحول إلى صورتي أنا على وجه الدقة، بل إلى صورة تشبهني وأصغر منه سنًا، صورته هو حين كان في سنٍ تقاربني، إنه ينمو بالعكس.

تستطيع أنت أن تتساءل عن معنى كل هذا، وعن صلة هذا بهلوساته عن الحشرة، وعن موقف أمي الغريب، وربما تستطيع تكوين استنتاج ما، لكنني لم أكن أملك هذه العبقرية أو هذا الترف حتى للتساؤل، لقد دارت الأحداث بسرعة وقسوة، فقد انتقلت تحت رغبة أمي للعيش لدى جدتي بصفة مؤقتة، وفي تلك الفترة عرفت أن أخي تم نقله لمستشفى للأمراض العقلية، وأنه توفي هناك.

استمرت الحياة كما لا بد، من كل ما حكيت لم أنس قط مشهدي في المرآة مرتديًا ثياب أخي يليه مشهدي أيضًا مرتديًا ثيابي، وظل هذا المشهد يخيفني ويؤرقني لأعوام تالية، كانت الأعوام التالية نفسها هادئة كالهدوء الذي يلي العاصفة، والتحقت بكلية العلوم وتخصصت في دراسة الحشرات لأسباب لا تخفى، كنت طالبًا متميزًا لأنني كنت مشغولاً بدافع أصيل خفي، أو غير واعٍ، أو أنني أتناساه عمدًا، هذا الدافع أن أفهم ما حدث، كلما استرجعت الأحداث استنتجت أن مفتاح هذا اللغز يبدأ بالحشرة.

كنت كذلك شغوفًا بالأدب، هذه نقطة يجب أن أذكرها لأنها كانت سببًا غير مباشر في فهم كل شيء، ففي رواية الإخوة كارامازوف يقرأ سمردياكوف أوراق أخيه إيفان خلسةً ومن ثم يعتنق آراءه، جربتُ الحبكة نفسها، وبدأت التفتيش الدقيق في أوراق أخي الأخيرة دون علم أمي، وكانت النتائج إيجابية.

منذ عشرة أعوام كاملة فهم أخي سر ما يعانيه ودوَّنه في أوراقه بخط يمزج الجنون بالطفولة، لن ننسى أنه كان يصغر عمليًا، وكان خطه عند نهاية الأوراق أشبه بخط طفل في العاشرة، أشبه.. أشبه بخطي في تلك السن، بل أشبه بخطه هو في السن نفسها، لقد كان عملاً بطوليًا وهو يعاني الجنون والطفولة المتزايدة من أجل بحثه المصيري عن الهويّة.

استنتجتُ مما عرفت أن أمي لا بد وأنها تخلصت منه بطريقة ما في المستشفى، وعرفت بالتالي أن علي أن أحذر منها، لقد صارت تراقبني، وهي دقيقة التوقع، فأنا أيضًا بدأت أرى الحشرة، لكني لن أنزعج ولن أخبرها، لن أنسى أنها لم تعد أمي بالضبط، هي بالأحرى نصف أم، ومما عرفت من الأوراق أن عائلة أمي وسكننا الأول كان في البلدة نفسها التي كان أخي يدرس فيها، والذي قادته المصادفة إليها ثانيةً للدراسة، وهو يحسب نفسه يراها للمرة الأولى، كل ذلك لم يمنعني أن أصبح واحدًا من أهم أساتذة علم

الحشرات في مصر، ويمكن لك أن تقرأ في العديد من الموسوعات والمراجع المتخصصة ما نشرته مستفيدًا من دراسات أخي ودراساتي، أول وصف علمي لتلك الحشرة:

"روتيلا دورا **Rutila Dura**: الحمراء الجافية، المقطع الأول يشير إلى لونها، والثاني إلى سلوكها العدائي تجاه أطفالها وميلها لالتهامهم، الحشرة نصف الآدمية التي تتكاثر عبر الإنسان وأول مثال معروف للتطفل الجيني، تضع بيضها في جسد أم بشرية في حالة ولادة، وتنقل البويضات إلى الطفل المولود والأطفال الذين يلونه، وتُحدث تغييرات جينية غير محدودة قبل العشرين، لكنها تفصح عن نفسها بعد ذلك، سواءً في الأم، أو في الطفل الأول، أو في الأطفال التالين، ولوحظ أن الأطفال المصابين يصغرون عمريًا وسلوكيًا مع الوقت ليبدأوا دورة حياة جديدة قبل أن تبدأ صفاتهم الحشرية في الظهور وممارسة حياتها.

ويجدر بالذكر أن المريض (...) قد دفع حياته ثمنًا غاليًا لنقف على نقطة البداية الصحيحة لهذا الكشف، فمات بطلاً.. وحشرة!".

• • •

علاء الدين

"قتله الكلب الذي عالجه، ومات ميتة كلب، مات وهو يشكو بأنه عطش، وأنه لا يرويه كل ما يشرب، هذه علامة موت معذَّب مغضوب عليه من الله"

مثل كل طلبة الطب اشتريت هيكلاً عظميًا، إنها لحظة شاعرية حين تدخل المشرحة وتتجول بين الهياكل العظمية المفككة على المناضد المتناثرة، ثم تختار واحدًا بعينه كأنك تختار فتاة أحلامك أو تقع في هواها من أول نظرة، إنها علاقة غريبة مع كائنات عادت إلى الحياة في صورة مختلفة وكستها كائنات بشرية كاملة، حيث ترتبط بهذا الكوم من العظام، ويحمل بصماتك، ورائحة عطرك المميز، وحرارة يديك، وآثار الطبشور وأقلام (الماركر) حيث تشير إلى العضلات والعلامات البارزة والغائرة في العظام، هي أيضًا لحظات تشعر فيها بمعنى أن تكون حيًا وأنت تمسك بفقرة من فقار الظهر أو العنق، تلك العظمة التي تدل أن صاحبها قد مات وتحلل وإلا ما لامست يديك.

كان هذا (علاء الدين)، هيكلي الخاص الذي سأدرس عليه وجواره لمدة ست سنوات، كنا نطلق أسماء عابثة كهـذه علـى الهياكـل، أحببت هذا الجو من الدعابة والذي كان لابد يبدو لغيرنا جوًا مـن العبث الشيطاني الحرام.

لم أكن أحتاج لشراء هيكل خاص بي لهذه الدرجة، خطر لي أنـه يمكنني الاعتماد على الرسوم التشريحية مع استعارة العظام التـي أحتاجها من الأصدقاء، والاعتماد كذلك على العظام التـي يشـرح عليها الأساتذة والمعيدون في المشرحة، لكنني ككثير مـن طلبـة الطب في الواقع لم أقاوم جاذبية الموقف، أنت تحمل يدك منـذ أن ولدت وستصحبك إلى أن تموت، لكنك لا تتصـور أبـدًا أن تـرى عظامها، أنا أرى!

حينما أفرغت العظام من كيسها الأسود فـي صـالة البيـت يـوم شرائها تساقطت متخبطة مصدرةً صوتًا شبيهًا بقرع الإكسـيلفون، لقد لاحظ (كامي سان صانص) هذا التشابه، واستعمل الإكسـيلفون ليصور صوت اصطدام الضلوع بالضلوع حـين تـرقص الهياكـل المنبعثة من قبورها الفالسَ في القصيد السيمفوني الشهير رقصة المقابر Danse Macabre.

عليّ أن أعترف أن ذلك الشريك فوق العادة في غرفتي لم يكن مريحًا، لم يكن يشغل المذياع وأنا نائم أو يضيء الأنوار أو يقرأ بصوتٍ عالٍ، كانت تفوح منه رائحة.

رائحة كرائحة العفن تشبعت بها الغرفة لدرجة صارت معها أمي تكره دخولها وتُصر على التخلص منه بدفنه، كانت تصر أنني لا أحتاجه وأنه ميت لا يجب المساس به إلا للضرورة القصوى، لكنني حاولت تجربة حلولٍ أخرى، كنت قد خمنت أن بعض الأنسجة قد تبقت على العظام وأنها تتعفن، فرحت أفحص الهيكل عظمةً عظمةً، فماذا وجدتُ؟

يرقات..

يرقات صغيرة تتحرك ببطء وضعف في تجاويف عظمة العجز Sacrum بالذات قرب نهاية العمود الفقري، بل إن بعضها أكمل نموه وصار حشرة يافعة زرقاء أو خضراء اللون، لامعة، فردت بعضها أجنحتها وطارت، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بلمسة من الذعر الحقيقي منذ أن دخلت المشرحة واشتريت الهيكل.

رششت الهيكل بالمبيد الحشري في كثافة، ثم طلبت من أبي - دون أن أخبره بما وجدت - أن يدهن الهيكل بالأبيض، فلو كانت به فجوات أو أنسجة متحللة فلا ريب أنها ستُدفن تحت هذه البشرة الصناعية.

وتم ما أردت، لستُ في حاجة لأن أحكي بالتفصيل ما كان يحدث في تلك الليلة السوداء على المكتب جوار فراشي حيث علّق أبي الجمجمة ليجفّ طلاؤها، كانت معلقة من فتحتها السفلية بالمقلوب، وكان علاء الدين يرمقني بضحكته المخيفة الصامتة دون فك سفليّ، ومن ثقوب جمجمته خرجت الديدان التي طردتها رائحة الدهان من التجاويف، ظلت تتساقط على سطح المكتب مصدرةً صوتًا كتقاطر الماء طوال الليل.

لكني كنت أعرف أن كل هذا سينتهي، هذا كابوس وسأصحو منه، عليّ أن أتماسك وأنتظر وأتدرع بكوني طبيبًا عليه ألا يشمئز من أجساد البشر، سواء الأحياء أم الموتى، وانتهى كل شيء، انسحبت اليرقات والحشرات من خشبة المسرح، وعاد الهيكل يكتسي بألوان العضلات والأربطة والأعصاب، وانتظمت حياتي.. حتى وقع حادث السيارة.

حادث تقليدي جدًا شبه قاتل، أصبت فيه بكسر في الجمجمة وكسرين في الساقين، وقضيت ثلاثة شهور نزيلاً في المستشفى إلى أن تعافيتُ والتأمتُ وعدتُ لدراستي، وسادت فترة من الهدوء النسبي.

كنت في الدرس الخصوصي أجلس جوار مرفت، برغم أنها كانت محجبة كراهبة، إلا أنها كانت لا تخفي شيئًا كعاهرة، هذا لم يقبّح

من شأنها في نظري، بل زاد من طابعها المثير الموحي بالعبث والخيانة والازدواج، كنت أستمتع بصحبتها ونظرات الحسد في عيون الناس، لكنني اليوم لم أكن مع همساتها الساخرة وأنا أتابع شرح الأستاذ لتشريح عظمة الساق على عظمتي الساق الخاصتين بي، أعني الخاصتين بعلاء الدين، كان يشير إلى موضع كسر قديم ملتئم في كل من الساقين.

حين عدت للمنزل ظللت أتأمل الجمجمة التي أخفى الدهان الأبيض شرورها، لا، هذا تخريف، أعني التي عقّمها الدهان الأبيض كالكفن من جميع أشكال الحياة.

وفي اليوم التالي كنت أطرق باب مكتب الأستاذ مصطحبًا الجمجمة، وسألته عما أعرف إجابته، وعما تعرف أنت أيضًا إجابته، أقولها بوقاحة، نعم، كان هناك كسر قديم آخر في الجمجمة، ازدردتُ ريقي ورفعتُ عينيّ له، كان ينظر لي من فوق منظاره الشفاف نظرة الضمير، نظرة الأب أو المدرّس، نظرة تقول بوضوح: أنا أعرف فيم تفكر، أنا أعرف ماذا فعلتَ!

عندما غادرته رأيت مرفت تسير بكعبيها العاليين لا تلحظني، وردفاها يترجرجان كطبقين من الجيللي، لحظة تصورت أنني أرى بأشعة إكس عظام رجليها تتحرك حركتها الإيقاعية المميزة، فبدت لي منفرةً.

عدت إلى البيت، وكنتُ متماسكًا إلى حدٍ ما حتى تلك اللحظة، وأمام المصباح استعرضت صور أشعة إكس التي تعلمنا قراءتها مؤخرًا، تلك الصور الخاصة بتشخيص كسوري بعد حادث السـيارة إيـاه، وقارنتها بدقة بمواضع الكسور نفسها في الهيكل، كانت جمجمـة علاء الدين ملقاة فوق الضلوع على صدغها، لم تبد لي ضـاحكة كالعادة، بدت حزينةً لسببٍ ما، هذا جنون، أنت مختل عقليًا أو أنـا كذلك.

كانت ليلة سوداء ثانية تذكرني بالأولى، ليلة حلمت فيها أنني استيقظ من النوم وأرى كل ما حولي بوضوح برغم النور المطفأ، وحـين مررت أمام المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط رأيت أننـي أشـعّ بضوء أخضر فوسفوري غريب، خرجت إلى الصالة حيث لم يكـن بالبيت أحد من أهلي، لكني وجدت الصالة كأنها سـاحة أو ممـر واسع في مستشفى، كل شيء أبيض، وكان بـاب البيـت وبـاب الشرفة المتقابلان مفتوحين، ومكتوبٌ على باب البيـت بـالأحمر المضيء: Exit.

من باب الشرفة خرج ممرضون وأطباء يجرون نقّالة عليها هيكـل عظمي كامل مترابط، نصفه السفلي مغطى بملاءة بيضـاء، كـان يجلس منتصب الظهر، وفي جمجمته كرتا عينين كـاملتين، كـان الجميع يتحركون كأنما لا يرونني، يخرجون بالهيكل على النقالـة

من الشرفة ويسيرون نحو الباب، هو فقط رآني، تحركت جمجمته وعيناه ليثبّت نظرته عليّ أثناء الحركة البطيئة، ومن فكيه الضاحكين ضحكة شريرة صامتة خرجت كلمة واحدة: **Death**.

لم أفهمها في الحلم، حسبته يخطئ في نطق كلمة عربية لأنه بلا لسان ولا شفتين، لا أعرف لماذا أسرعت إلى الشرفة حين خرجوا، ومن فوق سورها نظرت إلى الشارع، لم أجد سوى خرائب شاسعة مهجورة، كان الكون كله خرابة عظمى، لم يكن بها سوى قطعان من الكلاب المتقاتلة الوحشية التي كانت تصدر ضجيجًا من النباح والغرغرة المسعورة، كانت تتقاتل على زجاجة ماء مليئة كأنها قطعة لحم دون أن تقوى على فتحها أو كسرها، وخطر لي أن هذه الكلاب عطشى.

استيقظت على صوت قرآن الفجر الذي كان يُقرأ بصوت حزين مخيف، أحدث في نفسي ذعرًا غير مبرر، وتسارع قلبي، رقدت أتألم، وبقعة سوداء عظيمة تنتشر على سطح روحي كبقعة زيت عملاقة تتسرب إلى سطح بحر من أنبوب بترول، تتسع وتنتشر في بطء، كأن روحي ذاتها تتجلط في جسمي، كان عليّ أن أنبش الهيكل، أن أجرح بشرته البيضاء الصناعية المعقمة لأستخرج أية أنسجة تحتها، فعلت هذه المهمة الكريهة في اليوم التالي، لا حل سوى هذا، الوضوح سيقضي على الجنون أو على العقل، لكنني سأرتاح في أي الحالين.

قمت باختبارات تطابُق الأنسجة وانتظرت النتائج، إنني متأكد من النتيجة على أية حال، متأكد أنها أنسجة متطابقة لشخصٍ واحد، بل متأكد أن كل هذا تخريف يصل إلى حد الإبداع، وكان ظني صحيحًا، هذه المرة ارتجفت يداي في رهبة وأنا أقلّب في العظام، وفي كسورها، تناولت فقرة، خطر لي أن هذه هي العظمة التي تؤكد لك أن صاحبها مات وتحلل وإلا ما لامست يديك.

هذا العظم عظمي، هذا العظم الذي تعفن وفاحت رائحته، وفرَّخ اليرقات والحشرات.. عظمي، كيف وصل إلى يديّ؟ وكيف وصلت أنا إليه؟ وما معنى هذا؟ هل هو شبح؟ شبح يتعفّن ويطلَى بالدهان؟ هل أنا الشبح؟ أولم أرَ نفسي في الحلم مُشعًا فوسفوريًا؟ نظرت في المرآة فوجدت أنني من لحمٍ ودمٍ.. وعظم، لماذا نطق كلمة الموت وهو ينظر لي؟ وما معنى أن أرى الكلاب؟ ولماذا تتقاتل على الماء؟

في الصباح التالي كنت أجلس في المشرحة أدعو عاملها الذي باعني الهيكل على سيجارة ليقصّ لي كيف أتى به، وهو ما أوصلني بعد عسر إلى المستشفى، وعن طريق الممرضات عرفت القصة الكاملة للشاب طالب الطب وصاحب الهيكل الأصلي، كيف دخل المستشفى وكيف توفي بها منذ بضع سنين.

كانت تحبه، هذه الممرضة التي حكت لي قصته، عيناها قالتا ذلـــك وهي تتكلم، كان يعاني سرطانًا خبيثًا في مرحلة مبكرة في العظام، وكان يمكن إنقاذه، غير أنه مات ميتة لعينة أليـــق بكـــافر، مـــات نتيجة إهمال طبيب كبير في العلاج، لقد أخطأ الطبيب وأدى خطؤه إلى انفجار قنبلة السرطان في عظمه قبل قطـــع فتيلهـــا، وتـــوفي بأسرع مما هو معتاد في حالته، وكـــان موتـــه مفاجـــأة لأســـرته وزملاء كليته، وأثار تشاؤمًا عامًا، منها عرفت أيضًا أن اسمه كان "علاء".

سألتها عن كل شيء، سألتها حتى إن كان يحلم بكلاب، قالت إنهـــا لا تعرف، لكنه لم يكن ينام بسبب نباح الكـــلاب المســـتمرّ خلـــف المستشفي طوال الليل، دمعت عيناها وفقدت السيطرة، هتفتْ فـــي حقد:

- قتله الكلب الذي عالجه، ومات ميتة كلب، مات وهو يشكو بأنه عطِش، وأنه لا يرويه كل ما يشرب، هذه علامـــة مـــوت معـــذَّب مغضوب عليه من الله يا دكتور، أتمنى أن يموتهـــا الكلـــب الـــذي عالجه، أتمنى أن يموتها الكلب.

مرت الشهور واحتل علاء عالمي، استطعت الحصول على صـــورة له من زملاء دفعته، كنت أتأملها كثيرًا، وتحول بالنسبة لـــي إلـــى أهم إنسان في حياتي، لكني حين آلمتني ساقي وركبتي وظهري لم أكن أتوقع أنه احتل عالمي إلى هذا الحد، كانـــت نتيجـــة التحليـــل

معروفة بالنسبة لي على الأقل، من قال إنني سأنجو لمجرد أنني أعرف؟

كانت جمجمة علاء الدين ملقاةً فوق الضلوعِ على صدغها، لم تبدُ لي ضاحكةً، بدت حزينةً لسببٍ ما.

• • •

تجربة د. فانٍ

(١)

- الدكتور (فانٍ بن عبد العزيز)
- الأستاذ الملائكي
- طبيب الخليفة
- وصاحب المؤلفات المشهورة في الطب والفلسفة والكلام

كذا تقول اللافتة المعلقة بجانب باب داره الفخيمة الكئيبة فـــي آنٍ واحد، كنت أعرف أن جده ذاك الذي يُنسب إليه مباشرةً ليس عبد العزيز، وإنما عبد العزَّي الذي كان من أعراب الجزيرة وأنه أسلم حقنًا لدمه، وتأمينًا لتجارته، وحقيقة الأمر اليوم أن النـــاس تلـــوم على السلطان في الرواح والجيئة لاتخـــاذه إيـــاه طبيبًـــا، وهـــو المعروف بالسفه والفلسفة والسحر والشعوذة، وله في الإلهيـــات كلام كله خطأ من أوله إلى أخره، حتى أنه لا يمنعني من طرده أو تجربة السيف في عنقه إلا رضا مولانا الخليفة عنه، فوَاللهِ لو أذن

لي لزرعتُ رأسَه جوار باب داري، ليكون عبرةً لمن سوَّلتْ لهم نفوسهم الضعيفة وقلوبهم الغاوية الاشتغال بهذه العلوم الثابت بطلانها وبطلان نحلة منتحليها، أولئك الذين كان سبب كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو.

لماذا أطرق باب هذا الليْس؟ ليعرف أني له بالمرصاد كيلا يدس سمومَه في أحاديثه مع أمراء الخلافة وحاشية السلطان فيفسد عقولهم، ويعلمهم ما لم يأتِ به الأولون كالشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام.

- مولاي الوزير، حللتَ أهلاً ونزلتَ عالمي الصغير!

نطق "عالمي" بمد الألف بصوته الأخنف الذي يخرجه من منخاره الطويل المنحني، هذا القبيح يتلاعب بالكلام، ويأتي به على غير ما اعتادت العرب.

= عالمك الصغير؟ أفسح فإن لي أمرًا معك.

ابتسم ابتسامةً مداهِنة، وفرك كفيه أسفل لحيته الطويلة المدببة وقال:

- أمر مولاي، فليتفضل مولاي.

= سمعنا أنك تحدث الأمراء عن السحر وعلوم الكفرة.

- يا مولااي، يا مولااي، قلتُ لمولاي من قبل إنه الطب لا السحر، لقد أراد أحد الأمراء الذي يدرس الطب التعرف على تشريح الشريان الأبهر.

= وقال لي إنك أريته إياه على نفسك!

- يا مولااي، أتصدّق هذا؟! ومن يكلّمك الآن؟ بل ومن كان يشرح للأمير إذا كان صدري قد انشرح.. بمعنى الكلمة؟

ثم خفض رأسه وهزّه مرددًا:

- يا مولاي، يا مولاي.

كان القنديل المُعلَّق فوق رأسينا يلقي ظلالاً طويلة على وجهه المنخفض الذي لم يرفعه في وجهي منذ أن عرفته، لكني لمحت في عينيه بريقًا.

- آ.. مولاي جاء لسببٍ آخر.

= وما أدراك؟

- قلبُكَ.

أجفلتُ رغمًا عنّي وأمسكتُ صدري:

= قلبي؟؟

لان صوته:

- نعم.. قلبك يا مولاي، الطبيب الماهر يسمع القلب قبل اللسان.

= الطبيب الماهر أم الطبيب الساحر؟

- يا مولاي إنه الطب لا السحر، قلتُ لمولاي إنه الطب.

وقفتُ ألهث في ضعف.

ما أحوج قلبي المنفئد لهذا السفيه! منذ أن مرضتُ وأنـــا أحـــس خفقانًا مستمرًا وألهث مع أي جهد، لم أعد أقـــوى كثيـــرًا علـــى الحركة، زرت كل طبيب وعدت بثروة من أخفاف حنين.

جربوا مع مَرَضي كل عقار وكل طعام، أصبحتُ أخشـــى مجامعـــة زوجاتي، وأخشى أن يعرف أحدٌ من القصـــر مـــا آل إليـــه وزيـــر القصر، لم أعش سوى خمسين، لكني أحس اقتراب الأجل، وحيرة العقل، أأختم عملي بالتداوي على يد ساحر؟ أم ألقي بنفسي إلـــى التهلكة؟ ماذا لو كان طبيبًا على الحقيقة وعنده الشفاء؟ كل منفـــذٍ مظلم، وأنا تتقطع بي الأسباب..

- تعال واجلس يا مولاي.. دعْ نفسك

اهدأ بالاً واسترخ.. الليل شمعةٌ مُطفأةٌ

والموت روحٌ لم تأكل بعد من الثمر الحرام

والصمت كلمة لم تُجترَح بكارتها بشعر ولا بنثر

الأشياء فقاعات في الفراغ

وأنا وأنت جلطتان في شريان الإنسانية

سأنسيكَ عِلمًا.. وأعلّمك عالَمًا

سأعلمك كيف يتمدد الكون وينكمش

وكيف يَمَدُّ البحرُ ويَجْزُرُ

وكيف تشتعل الأشجار بزهراتها ثم تخبو

كل هذا مع حركات صدرك

سأعلمك كيف تملأ قلبك من البحر كالرجل

وعينيك من الشمس كالمرأة

ويديك ورجليك من غبار الأرض كالطفل

وكيف تخدش بأظافرك الهواءَ كالأسد

وكيف تنثر أعضاءك وتدفنها في أركان الأرض الأربعة

وتتجمّع مرةً في كل عام

سأريك عالمًا أكثر أملاً

سأريك عالمًا الأرضُ فيه كُرة

وتسبح فيه حول شمس

والشمس حول شمس

والشموس حول لبّ الكون

وأنا وأنت جلطتان

نسدّ شريان الكون فيخبو ضوء النجوم

نسري في شريان الكون فيعود الضوء إلى العالم.

= يا الله! هل هذا شعر؟

- سيسمونه (قصيدة النثر) في ذلك العالم يا مولاي!

= أأنت شاعر أم ساحر أم طبيب أم مجنون؟

- أنا نبيٌّ يا مولاي.

= اخرس.

- ومولاك ومولى مولاك

ارقد يا مولاي

لا تشعرْ

لا تشعرْ بشيء

لا تشعرْ بيدي وهي تخترق بأصابعها صدرك

لا تشعرْ بها وهي تتحسس ما تحت الضلوع

لا تشعرْ وهي تمسك قلبك وهي تجذبه

وهي تنزعه من جذوره بين رئتيك

لا تشعرْ بأنك تشعر

أو بأنك لا تشعر

لأنك في قبضتي يا مولاي

انظر

انظر كيف تنبض

أنت في قبضتي يا مولاي.

= هل هذا قلبي؟ لعنة الله عليك، بل هو سحر العين.

- هات يدك يا مولاي ضعها مكانَ قلبك

هل تجد شيئًا

لا.. لا.. (تؤ.. تؤ)!

أنت لست هناك

أنت هنا.. في قبضتي يا مولاي.

= أشهد أن لا إله إلا الله

- وهكذا..

= وأن محمدًا رسول الله

- نضع مكانَ القلب..

= أشهد أن لا إله إلا الله

- جعرانًا..

= وأن محمدًا رسول الله

- فرعونيًا..

= أشهد أن..

- لقد تعلمتُها من الكهنة

= أشهد..

- ستعيش به لسبع ليالٍ

= أشـــ..

- وبعدها تستعيد قلبك كما كان

آند مور ذان And more than

- ...

يو وِلْ ثانك مِي.

- ...

(٢)

لقد جامعتُ ثلاثًا من زوجاتي وأشعر أن الله والخليفة قد رضيا عني، إنني لا أنبض، بيد أنني أحس نشاطًا يحملني على أن أجامع بقية زوجاتي وملك يميني، لو كان لي ملك شمال لجامعتهن أيضًا.

لكن نفسي لم تكن راضية، إن ذلك الساحر الدنيء يبشر بعلوم أولياء الشيطان بين أبناء الخليفة وحاشيته، ويرسل كتبًا إلى نُسّاخ السلطنة تحمل من الكلام أقبحه، ومن الفكر أشنعه، ومن الصور والرسوم أخبثها، والله له عندي حسابٌ عسِر، إن روحي في يده، وقلبي في داره، يعلم الله ماذا يفعل به، أو إذا كان ما يداريه عني لعلاجي أم للقضاء عليّ أم لإذلالي، ولم يعد أحد يقف لأفعاله الشنعاء وكتبه وأفكاره التي تعكر الفرات والنيل، بل إنه راح يصرف الناس عن عمود الشعر وينشدهم شعره المنثور القبيح!

= اللهم إني أشكو لك ضعفي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.
{ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّارًا. إنك إنْ تذرهم يُضِلوا عبادَك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا}

= يا ولد..

- نعم يا أبت.

= آتني بأمك.

- لماذا يا أبت؟

= ما شأنك أنت؟ لأجامعها يا ابن الكلب!

(٣)

آه.. قلبي.. بل جعراني الفرعوني.. يؤلمني، لقد مرت ست ليـــالٍ، وأنا أعود كما كنت وأسوأ، يبدو أنني استهلكت الجعران كثيرًا في الجماع.

= افتح أيها الساحر.. افتح أيها الزنديق.. افتح.

- حالاً يا مولاي.. قادم يا مولاي.

= أيها الزنديق.. أريده.. أريده.

- ماذا يا مولاي؟

= وماذا تخال؟ قلبي يا زنديق.. قلبي الذي.. الذي..

- اجلس يا مولاي، أنت مرهق.

= أريده.

- الحقيقة يا مولاي.. أن هناك مشكلةً صغيرة فيما يتعلق بقلبك.

= أريده كما هو، مريضًا كان أو سليمًا، أريد أن أموت بقلبـــي يـــا كافر.

- يا مولاي، حاول أن تفهم، لقد كان عليّ أن أطهّره بنقعـــه فـــي محلول لمدة أسبوع، لكنه لم يستجب، وإنما بدأ يتغير.

= ماذا تعني يا ابن الكفرة؟

- لا تصرخ يا مولاي، لا تنس أنك مَن جئتني، الحقيقة أن هذه كانت أول تجربة من نوعها بالنسبة لي، وأنا بصراحةٍ أعجز عن السيطرة عليها.

= أين قلبي؟ أين قلبي.. وإلا..

- يا مولاي، قلبُك.. لم يعد قلبَك.

= هل هذا من قصائد نثرك يا وصمة الشعر والنثر؟

- عد غدًا يا مولاي ليلاً.. سأسلمك إياه ولتفعل به ما تشاء.

= أعود غدًا وتسلمني إياه، وتضعه في صدري كما كان، وإلا سأفعل بك ما أشاء.

- سنري يا مولاي إن كان ذلك ممكنًا، سأفعل ما بوسعي.

(٤)

كنتُ قد بدأت أرى الشياطين حين زرت الساحر في الموعد، رأيت أن خشب بابه ينمو ويورق ويزهر ويكاد يمسك بتلابيبي كلما أطرقه، رأيت لهب القنديل يرقص عاريًا، كيف يرقص وكيف يعرى؟ لا أدري، رأيت أن أثاث بيته يتنفس في إنهاك بصوتٍ مسموع، ورأيتُ رجلاً مرسومًا في لوحة يمشي دون أن يبرح موضعه إلى الأبد ويستنجد بي من عذاب الساحر.

جاء الساحر وأجلسني، ثم غاب قليلاً، حسبته سيأتيني بالقلب لكنه جاء بكأس، وطلب مني أن أجرعها.

- هذا لإحداث الانسجام بين قلبك الجديد وعقلك يا مولاي.

كنتُ مريضًا، تنهش فيّ الحمى، وخطر لي أن الساحر يعدّ لي فخًا، لا ريب في أنه يعرف أنني لن أتركه إن عدتُ سالمًا، لكنني شربت الكأس لأتخلص من هذا العذاب المهين بأي ثمن، رأيته يسندني لأقف، وهمس لي:

-هل أنت مستعد لاستلام قلبك يا مولاي؟

لم أقوَ على الرد، مرت عليّ اللحظات دهورًا، اللهم أذقه من حر نارك، ولكن بعد أن يُعيد لي قلبي.

سار بي حتى باب مختبره ثم توقف في حذر على مسافة، وقال:
- افتح أنت الباب يا مولاي.

في الأحوال العادية كان توجيه أمر لي كفيلاً بتطيير رقبته، لكن الذهول استولى على حالي، كأنني مسحور، فقد كان الباب يرتج كأن وراءه ليثًا حبيسًا جريحًا، يرتج ويكاد ينخلع من حلقه، مددتُ يدي وحركت المزلاج.

سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم.
سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم.

انفتح الباب على مصراعيه بعنف، ورأيت.. رأيت فؤادًا عظيمًا بحجم ثور، له لوامس كأسماك البحر، ويقفز فوق الأرض كالضفدع، ويزأر بصوت كالتجشُّؤ، إنه ينبض ويقفز مع كل نبضة، يقفز ناحيتي، وقف الساحر يقهقه، استدرت أعدو، انكببت على وجهي، ثم نهضت وأطلقت ساقيّ للريح، عند الأشجار البعيدة توقفت أراقبه وألهث وأرتجف وهو يقفز مبتعدًا في الحقول.

اللعين، لعنة الله عليه، لعنة الله، لقد قُضي الأمر، قتلني ساحر الشؤم، أخذ قلبًا وأعطاني جعرانًا، ثم انتهى أثر الجعران فأعطاني وحشًا.. غريب! ما الذي يسيل من أذني؟ هذا حقّ، أشعر بصداع.. أشعر أن.. لا أشعر بشيء.

وجدتُ رأسي قد ارتَبَسَ (=اكتنزَ)، وتميّع مخي فسال من فلجـات رأسي، وانسفح الدم مني مدرارًا، ثم.. ما هذه اللغة التي أتكلمها؟ تقافزتُ على العشب أرمق ذاك الأبله الذي كنت مخًا فـي رأسـه، يقف ويرمقني بعينين خاويتين مظلمتين كجهاز كمبيوتر سقطَ نظام تشغيله فوقف لا يعرف ماذا يفعل؟

أخذتُ معي العينين بالطبع، لقد كبرت الآن وأستطيع الاعتماد على نفسي، ربما أستطيع اللعب مع الأولاد في الشارع، لكن لا شـيء يُقارَن بتحسس العالم مباشرةً دون جسد، إنني أرى كـل شـيء، أسمع كل شيء، أتذوق وأشم كل شيء، أحس كل شيء، يا له من شعور! يا له من شعور!

• • •

الموت.. قيصريًا

"وحين أقبل على إحدى الذبائح بالذات وجدها تنتفخ، تنتفخ وتتحرك كأن بداخلها شيئًا أو أحدًا مختبئًا يحاول الخروج، فسارع الشيخ بغرس المنشار فيها قبل أن يخرج.. وانفتح بطن الذبيحة على أثر المنشار فسقط منها جسد ضئيل لفتى عارٍ ميتٍ"

لا يلمني أحد على كراهيتي لليهود، صحيح أنه ليس كل اليهود صهاينة، وليس كل اليهود قاموا بمذبحة دير ياسين، وليس كل اليهود قتلوا أمي فيها، لكنني لست فيلسوفًا لأفرق بين اليهودية والصهيونية، أنا مجرد شاب بسيط متوسط التعليم يبحث عن زوجة كل مؤهلاتها أنها ليست يهودية.

ولا يلمني أحد أيضًا على كراهيتي للعرب، ليس كل العرب متزوجين من يهوديات، وليس كل العرب شاهدوا أهليهم وهم يُذبحون في دير ياسين، وليس كل العرب أبي، لكنني لست مجرد شاب متوسط

التعليم يبحث عن زوجة كل مؤهلاتها أنها غير يهودية، بل وغير عربية أيضًا، ولا يلمني أحد بعد ذلك لأنني لا أحب أخي، وأنني أكنّ له هذه المشاعر المعقدة من الحب والبغض والألفة والغربة برغم صغر سنه، نصف العربي من جهة الأب، نصف اليهودي من جهة الأم، وإن كنت أومن بيهوديته إيمانًا مطلقًا، أوليس يُنسب اليهود إلى أمهاتهن؟ والنتيجة أنني شبه منفصل عن أخي نصف اليهودي وأبي الذي خان أمي، برغم أننا نسكن بيتًا واحدًا، لأنني لم أنس كيف فتح الصهاينة القتلة بطن أمي الحبلى بسونكي البندقية، وكيف أن خالتي قامت بتوليدها قيصريًا بهذه الطريقة قبل أن تموت وقبل أن أموت معها، والغريب أنني تشبعت بهذه القصة حتى أكاد أذكرها صوتًا وصورةً.

لم تكن علاقة خالتي على ما يرام بأبي، وهي التي غذَّت عداوتي المستحَقة له طول هذه السنين، وبرغم أنني لم أعتقد قط في سلامة عقلها إلا أنني فهمت كيف لم تنس لأبي أنه تزوج بعد أختها يهوديةً بعد أن هاجر من فلسطين إلى ألمانيا الغربية، ثم استقر في مصر، وهكذا ساءت أحوالي الدراسية مع سوء أحوالي الأسرية والنفسية، واضطررتُ للانقطاع عن التعليم، والعمل بذلك المذبح، كنت أنظف الأرض، لم تقم خالتي بتوليد أمي قيصريًا إلا لأنظف الأرض في نهاية المطاف، إنها لم تنقذني بل قتلتني قيصريًا قبل أن أولد.

كثيرًا ما رأيت الشيخ يقوم بعمله، اسمه إسماعيل، لكننا اعتدنا أن ننادي كل ملتحٍ بالشيخ، خاصةً إذا كان متدينًا مثله، ولحيته أظهر ما فيه، مستديرة كبيرة تلف وجهه المكتنز، كما أنه يمسح عليها كلما أوشكَ أن يشق ذبيحةً من الذبائح الضخمة المعلقة طوليًا بالمنشار الكهربي المستدير، كأنما سيغوص في لحمها إلى ذقنه، تابعتُ هذه العملية كثيرًا في رهبة، لا أدري لماذا سحرتني، فيها طابع بدائي وحشي لا رحمة فيه، كأنها من زمن آخر قبل أن تنمو للبشر مشاعر، خاصةً مع بسمة الشيخ الهلالية التي تشع منها أسنانه الناصعة وسط حلكة لحيته، تلك البسمة التي تظهر كلما أوشك على شق الذبيحة، وتدريجيًا ودون أن أدري صار هذا المشهد من كثرة مصادفته كامنًا في عقلي الباطن، أحيانًا أذكر بعض تفاصيله في النوم أو اليقظة، كبسمة الشيخ، أو مشهد المنشار وهو يزأر ليشق الجسم المسلوخ.

أظن أن تلك الخطبة في المسجد هي التي بدأت شيئًا ما، كنت جالسًا أتابع الإمام ظاهريًا، فلم أكن متحمسًا لسماعه، ولا أذهب لصلاة الجمعة أصلاً إلا نادرًا، لكن صوته طرق ذهني كالجرس وهو يقول:

"وفي رواية مسلم: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الشجر والحجر،

فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله.. إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود".

ظل الحديث يتردد في عقلي كالصدى طيلة الطريق، وحين دخلت البيت الصامت الكئيب ظل معي، وحين وقفت أمام سرير أخي الصغير النائم ظل معي، تذكرتُ أن أمه صممت أن تبعث لأبي بخشب السرير من الخارج، وأن أبي الذي يملك ورشةً للنجارة قام بصنعه بنفسه، لكنه لم يفهم قط لماذا طلبتْ منه هذا، تأملت وجه أخي الساكن، وخطر لي أنه يخدعني، سيفتح عينيه بمجرد أن أستدير، ظل ساكنًا، وظل الحديث النبوي يتردد.

ذهبت في ذلك اليوم إلى غرفتي لأنام استعدادًا لعملي الذي يبدأ ليلاً، غرقت في نوم عميق أسود كالكون، ثم بدأ كل شيء يضيء ويتشكّل، رأيت الشيخ إسماعيل، يمسح على لحيته ويبتسم وهو يدير المنشار، لكن ملامحه لم تكن كما عرفتها، كان انفعالاً خبيثًا يتسرب من تحت قسماته، وحين أقبل على إحدى الذبائح بالذات وجدها تنتفخ، تنتفخ وتتحرك كأن بداخلها شيئًا أو أحدًا مختبئًا يحاول الخروج، فسارع الشيخ بغرس المنشار فيها قبل أن يخرج له، تناثر اللحم والدم، وانفتح بطن الذبيحة على أثر المنشار فسقط منها جسد ضئيل لفتى عارٍ ميتٍ إذ مزق المنشار صدره وبطنه، الغريب أنه كان حبيسًا في الذبيحة مقلوبًا ورأسه لأسفل، حتى أنني تساءلت للحظة في الحلم كيف دخلها، تمدد على الأرض

مغطى بزلال شفاف لزج كطفل وليد، وحين دققت فيه.. وجدته أخي، لم أفزع في الحلم ولم أفرح، فقط أحسست بخوف، أحسست إحساسًا قويًا أن ما أراه شرير حقيقي لا ينتمي لحلمي الخاص، كأنما هو واقع مدسوس.

في المساء ذهبت إلى العمل، حركني دافعٌ ما لمشاهدة عمل الشيخ، كان يمسح على لحيته ويرفع المنشار الزائر، لكنه حين غرسه في بطن الذبيحة ارتد متعوذًا مبسملاً، لقد انفجر تيار من الدم من موضع الشق، وهو ما لم يعتد رؤيته في ذبيحة تم استنزافها ذبحًا بالفعل، أحال الذبيحة للتنظيف وهو على غير ما يرام، لكنه فسّر لي الموقف بأن وعاءً دمويًا لم يكن قد فرغ من الدم بعد لسبب ما، مر الوقت لكن المشهد زلزل أعماقي، أصابني تهدج كالبكاء، بكاء لا يبدأ ولا ينتهي، شيء ما جعلني أومن أنها ليست مصادفة أن أحلم بجزء مما حدث بالفعل، أكملت ساعات عملي في شرود طويل، لم أكلم أحدًا، ولم أتناول العشاء مع زملائي، وقبل الفجر عدتُ إلى البيت، كانت عربة الإسعاف تثير ضجة كبيرة، وأبي يولول ويلطم خديه وأنبأتني ملابس عمله أنه عائد للتو مثلي، لا بد أن شيئًا حدث لأخي، فهمت من الجيران ورجال الإسعاف أنه أصيب بجرحٍ بليغ أدى إلى استنزافه ووفاته، ولما لم أستطع أن أفهم أكثر تركت الموكب الدامي وصعدت إلى شقتنا، ودخلت حجرة أخي، فلم أجد أثرًا لجرحٍ.

لكني حين دخلت حجرة أبي كانت بقعة عملاقة من الدم تلوث الأرضية جوار السرير وقد تخثر بعضها، ولوثتْ منشار الخشب الكهربي الدائري الذي كان موضوعًا على الأرض منذ عدة أيام جوار السرير، هل سقط عليه أخي من علٍ؟ ولكن كيف؟ هنا توقفت عيني عند السرير، لا أكاد أصدق فرحت ألمسه بيديّ هاتين، ألمس الفراش الذي انخفض بسبب سقوط ألواحه.. القضية مغلقة أيها السادة! لقد صعد الطفل ابن العاشرة على السرير لتطول يده ما فوق الدولاب المجاور، لا بد أنه كان يريد لعبة من لعبه فوقه، وحين سقطت ألواح السرير تعثر وسقط بين السرير والدولاب، بالضبط فوق المنشار المشرع أسنانه، وكما في الحلم، لم أشعر بفرح أو بفزع، فقط شعرت بخوف، شعرت أن كل هذا شرير غير حقيقي ومدسوس، كأنه حلم.

وفكرتُ قليلاً..

من العسير في رأيي المتواضع أن يُصنع كل أثاث المنزل من خشب الغرقد، أو أن يصنع منشار خشبٍ منه، لقد انتهت عبقرية اليهود عند هذا الحد، لا يمكنك أن تكون حذرًا أو عبقريًا أكثر من اللازم.. مهما حاولتَ.

• • •

القوقعة

فعلتْ ما فعلتْه منذ عشرة أعوام..

كانت الشمس تحرق العالم، وكان جلدها يُطهَى بدرجــةٍ مــا فــي الضوء القاتل، لكنها لم تكن تشــعر والأمــواج تضــرب رجليهــا وظهرها، كانت أعلى من البحر، أعلى من العالم وهي فوق كتــف والدها الشاب، كانت ضحكاتهما تتردد في أذنيها كما لو كانت تأتي من تحت الموج، والماء في أذنيها يعوق سمعها إلــى حــد مــا، ووالدها يقول شيئًا لا تذكره.

رفعتْ يديها وغطت بهما عينيه من الخلف:

- أنا مييين؟

= لا يا فادية، بلاش هزار دا الوقت.

- مش ها شيل إيديا إلا أما تقول أنا مين.

= أنت فادية، خلاص؟

- لا أنا مش فادية.

= أمال أنتِ مين؟

كانت هذه آخر جملة تذكرها بصوته، لم يكن شيء واضحًا، يبدو أنه تعثر في شيء ما في القاع وهوى على وجهه في الأمواج التي كانت تصل إلى عنقه، أما هي فقد طفت بعوامتها، لم يستغرق المشهد ثانية، ووجدت نفسها وحدها في البحر الهائج لا تفهم شيئًا، نادت أباها:

- بابا.. بابا..

حتى نبرتها في النداء لم تكن تحمل خوفًا أو قلقًا واضحًا، كان أبوها يداعبها بهذه الحركة حين يمثّل أنه غرق، لكنه كل مرة كان يصعد بعد ثوان، فلماذا لم يصعد حتى الآن؟ كانت المشكلة في الموجة الوحش التي جاءت من العمق على بعد عشرات الكيلومترات، ربما من بحر آخر أو محيط آخر، ثم تضخمت كلما اقتربت وعلت لتهوي فوق رأسها، غطاها الماء بالكامل، ثم حملتها عوامتها إلى السطح لتنقذ حياتها للمرة الثانية، لكن ما أثار ذعرها بعد ذلك لا بد أن يكون أكثر هولاً، كائن قشري صغير كأنما هو سرطان بحر وليد يتعلق بأذنها، أمسكته بيدها وألقته في الماء بهلع شديد، تقلبت على ظهرها في الفراش، ومنحتها الوسادة التي انحدرت على وجهها مشاعر اختناق حقيقية.

في ذلك اليوم عادت إلى الشاطئ بعد أن رآها أحد السابحين من بُعد وقال شيئًا عن الأهل الذين يتركون أطفالهم في البحر وحدهم، خرجت إلى الشاطئ ترتجف ولفّتها أمها بالمنشفة، سألتها عن

والدها فصمتت، وبعد قليل كانت تجلس على الرمال مع أقاربها الأطفال تبني وتهد القصور كأن لم يحدث شيء، كانت فقط تخشى أن تلتقي عيناها بعيني أمها كأنها تداري ذنبًا جسيمًا، حينما كسرت المزهرية الجديدة ثم عادت لتجلس أمام أمها وتلعب بالمكعبات في الصالون ببراءة، ذات الموقف. في مساء ذلك اليوم كان أبوها في عداد المفقودين، وتمنت في سرها ألا يسألها عنه أحد، بالفعل لم يسألها أحد.

• • •

استيقظت في ميعاد الذهاب إلى الكلية والضوء يقتحم الغرفة رغم الستائر الحالكة، وكعادتها بعد الاستيقاظ جلست متكورة في الفراش ورأسها على ركبتيها المضمومتين إلى صدرها، ظلَّت هكذا لنصف ساعة كأنها درجة بين النوم واليقظة، لم يكن الكسل، بل كان خوفها من مواجهة العالم، تحاملت على نفسها لتنهض وتخطو إلى الحمام، تأملت وجهها في المرآة بهالاتها الداكنة تحت عينيها، كانت دائمًا تكره هذه الهالات رغم أنها منحتها مع نحافتها الظاهرة سحرًا لا شك فيه.

غمرت رأسها في ماء الصنبور، هنا.. رفعت رأسها مطلقةً صيحة بين الصرخة والآهة، حتى أن الماء بلل باب الحمام المغلق خلفها

تمامًا، لقد شعرت به، رأته بطــرف عينهــا، دققــت كثيــرًا دون منظارها الطبي في المرآة، مدت يدًا حذرة مرتجفــة إلــى أذنهــا اليمنى، ثم تحسستها من الداخل.

قلتُ لها:

- ولم تجدي شيئًا، كما أنك لم تري شيئًا في المرآة، ما لا نراه ولا نلمسه لا وجود له.

- بل رأيته يا دكتور، لمحته بطرف عيني لجــزء مــن الثانيــة، وألمحه كثيرًا.

تنهدتُ في إرهاق، هذه أول حالة يظن فيهــا المــريض أن كائنًــا بحريًا يعيش في أذنه أقابلها في حياتي.

• • •

كان صديقي د. رءوف أخصائي الأنف والأذن والحنجرة مندهشًــا مما طلبت، أكدتُ له أن هذا جــزء مــن علاجهــا، وأن عليــه أن يفحص أذنها بالمنظار ثم يؤكد لها في حياد علمي أنها نظيفة مــن أي كائن قشري، وحرصت طبعًا على تنبيهه ألا يظهر أية معرفــة قريبة بي.

= خير إن شاء الله.

- أنا.. أشكو من ألم في أذني، كأن جسمًا غريبًا بداخلها، حشـــرة أو شيء ما.

= حسنًا، فلنر، ها نحن نرى، لا شيء، إنها أنظف من أذني، فلنر الأذن الأخرى، أنظف من الأولى.

- لكني أشعر بألم.

= هذا الألم من كثرة ما تعبثين بأذنك، لقد جرحتها أظافرك وهـــذا ليس جيدًا، سأصف لك دواء.

- أريد أن أغسلها.

= لكنها نظيفة.

وكما طلبتُ منه، ناقشها الدكتور رءوف قليلاً ثم انصاع لرغبتهـــا، حكى لي فيما بعد عن نظرة الرعب التي أزادت عينيها اتساعًا حين تدفق الماء في أذنها، وحكى لي عن حرصها على إلقاء نظرة على الماء الملوث بشحم أذنها، وحكى لي كيف لم تبد كمن يغسل أذنـــه للمرة الأولى مترقبًا متألمًا، بدت خائفة لكنها لم تكن المرة الأولـــى لها، وأعتقد أن هذه الفتاة مدمنة غسيل أذن.

قالت لي بعدها إنها لم تكن تتوقع أن يخرج الكـــائن مـــن أذنهـــا بالغسيل وقد ظل هناك عشر سنين، بل إنها أصرت علـــى غســـيل أذنها لأن اندفاع الماء الشديد يجعل الكـــائن يـــدوخ ويكـــف عـــن إزعاجها عدة أيام، فلا تراه بطرف عينها يمـــد أقدامـــه القشـــرية خارج أذنها كلما وقفت لتمشط شعرها أمام المرآة أو تغسل رأسها

تحت الصنبور، ولم يكن كل هذا جديدًا عليّ، فما أكثر ما رأيت! المريض الذي يظن أن ثعبانًا يعيش في بطنه، والمريضة التي تعتقد أن دودة تعيش في لسانها وتخرج لتأكل كلما أكلت لحمًا أو جبنًا.

لكن حين جاءتني الفتاة تبكي، وتضع رأسها بين كفيها على مكتبي، وملامحها تفيض بحزن وقهر وحيرة، وتتوسل لي أن أجد حلاً، لحظتها شعرت بقلبي يخفق، يا لمشهدها هذه الهزيلة الهشة وهي تبكي وعيناها محمرتان متوسلتان! هي أيضًا كانت كثيرًا ما تنظر لي بإعجاب حين أحدثها عن خلفيات مرضها وأستعرض أمامها ثقافتي، وأحسستُ أنها تألفني كثيرًا لما شعرتْ به فيّ من تفهّم لحالتها، وتدريجيًا شعرت أنني أحبها، وربما كان في زواجنا شفاء لها، خاصةً وأن كل ما تعانيه من هلاوس ليس إلا بسبب شعورها بالذنب حين كانت سببًا غير مباشر في وفاة والدها. قبلتْ دعوتي لها على الغداء في ذلك اليوم في أحد المطاعم القريبة التي تقدم البيتزا.

• • •

كما توقعتُ، فبعد زواجنا انتهت كل الهلاوس وصارت حالتها أكثر استقرارًا، وإن ضايقني فيها أن وزنها أخذ في الزيادة، لكنني

سعيد وهي سعيدة رغم فارق السن بيننا، ولا تنغص حياتنا أية كائنات بحرية.

• • •

الجزء التالي بقلم : د. رءوف عبد المنعم

استشاري الأنف والأذن والحنجرة..

اتصل بي الدكتور محمد شوكت صديقي أستاذ الأمراض النفسية والعصبية، وأوصاني بمريضةٍ عنده تريد إجراء بعض الفحوصات، وطلب مني أن أناقشها قليلاً قبل أن أقوم بكل فحص تطلبه، سألتها ما اسمها:

- فادية محسن ماضي.

= فادية محسن محمد ماضي؟

- كيف عرفت؟

= كان صديقي الأعز، رحمه الله.

عجيبٌ هذا الزمن! كان والدها الذي كان طبيبًا نفسيًا أيضًا قد طلب مني الطلب نفسه منذ أكثر من عشرين عامًا مع مريضة من مرضاه، وكانت تلك المريضة تظن أن كائنًا قشريًا يُشبه سرطان

البحر يعيش في أذنها، سألت د. محمد شوكت عن حالة الفتاة الحالية بالتفصيل بعد ذلك:

- تظن أن هناك كائنًا رخوًا يشبه الحلزون الذي يعيش في الحدائق يعيش في أنفها، ويطل من إحدى فتحتيها كلما غسلتها أو تمخطت، لكنها لا تجده بعد ذلك، وأعتقد أن هذا نتيجة تفاعل هستيري مع عقدة الذنب بداخلها حين كانت طفلة في الرابعة تلهو مع والدها د. محسن ماضي رحمه الله، وتسببت في تعثره في حديقة الفِيللا ليصاب في عنقه إصابة بالغة ويتوفى.

ثم نفخ دخان غليونه في شرود وتابع:

- ولكن.. أتعلم يا د. رءوف؟ لقد بدأت أميل إليها، هذه الفتاة الرقيقة الحزينة، أفكر في التقدم لها، بل ربما كان في زواجنا شفاؤها، وحال بينهما الدخان.

• • •

كل الألوان

"راوغه أيها البشري، اخدعه، أنتم قد كبِرتم، وتستطيعون الاعتماد على أنفسكم".

كنت في عالمين آخرين.. عالم الحلم، وعالم موازٍ آخر داخل الحلم، كنتُ أقف كالعادة على الجسر الخشبي القديم المتهالك، وهم يقفون على الناحية الأخرى، وبيننا النار، نار رقيقة شبه شفافة لكنهم يخافونها بشدة ولا يستطيعون العبور بسببها، قال الأحمر:

- هل من تقدم أيها البشري؟
- لا زلتُ أحاول.. لا أدري..

فقال الأزرق:

- ألم تسل مدير السايبر؟
- بلى.

فقال الذهبيّ:

- وماذا قال لك؟

- قال إنه سيستشير مهندس الشبكات.

- هل تظنه يماطل؟

- ولماذا يماطل؟ لا أحد يعرف أنكم تستعدون للعبور، لقد أوهمته أن جدار النار الذي يحمي الخادم يمنع دخولي على مواقع تهمني، وهو يصدق.

عاد الأحمر يقول:

- اجتهد أيها الأرضي، اجتهد وسنمنحك الخلود.

أدرتُ ظهري له وعدت، وبمجرد أن تركت الجسر واستويت على الأرض حتى صحوت.

• • •

- يا أستاذ سيد، قلت لك إن هذه المواقع هامة جدًا بالنسبة لي.

= صدقني يا أستاذ حسن، لقد اتصلت بالمهندس فأرجأ الميعاد.

- أرجو أن يكون قريبًا، لأنني أحتاج هذه المواقع لإكمال بحثي في الماجستير.

= أقدر ذلك، سأبلغك حين يأتي، لا تقلق.

- مع السلامة.

وضعت السماعة، وعدت أضغط زر التحميل، فلم يحـــدث شـــيء، ملف مضغوط لا تتجاوز مساحته ميجا بايت واحد، ومع ذلك أجتهد لأسابيع في الحلم واليقظة لتحميله.

• • •

- كيف الوضع الآن في الأرض أيها الأرضي؟

- أحسبكم عالمين، ومع ذلك الأوضاع كما هي منذ حَقَدَ قابيل على هابيل وقتله.

قال البنفسجي:

- هل تصدق أنه فعلها من منطلق الحقد؟

- وماذا أصدق؟!

رد الأسود:

- إنها مؤامرة، لقد كان قابيل أقوى وبالتالي كان له حـــق فـــرض قانونه الخاص، ولكن الضعفاء يحاولون إساءة سمعة الأقوياء.

وهتف الأحمر:

- بل هي مؤامرة، لقد كان قابيل فقيرًا لا يملك إلا محصولاً هزيلاً، وكان هابيل وافر الغنم، فقتله قابيل ليحقق التوازن المادي وينـــال حقه.

وصاح البرتقالي:

- بل هي مؤامرة، لقد كان قابيل يتحرك من منطلق مركب أوديب الذي يحكم كل تصرفاتكم، وكان يريد إثبات رجولته أمام أبيه.

قاطعتهم في سأم:

- أعرف أيها السادة، شكرًا، ولكن الأهم الآن أن نتعاون من أجل أن أحمِّل ملفكم إلى جهازي، حاولوا الضغط على المهندس حين يأتي.

هتفوا:

- سنضغط على المهندس، سنضغط على المهندس.

• • •

= آلو، أستاذ حسن؟ أنا المهندس غانم، مهندس الشبكات.

- أهلاً.

= الحقيقة لدي سؤال.. ما المواقع التي تريد دخولها بالضبط؟ لا أريد التورط في عمل له خطورته الأمنية.

- ولماذا تسأل؟ الحقيقة لا أستطيع إفادتك، هذه أمور شخصية.

= وأنا لا أستطيع مساعدتك، متأسف.

<u>كليك</u>.

• • •

- الخطأ خطؤكم.

قال الأزرق وأجنحته تخفق:

- لم يكفِ الوقت فقط.

وأكمل الذهبي وعيناه تضيئان:

- كان عليك إبقاؤه فترة أطول على الهاتف، حاول في المرة القادمة مقابلته مباشرةً.

وتابع البنفسجي وقرناه يستطيلان:

- لا نستطيع الضغط عليه ما لم تُبقه معك لفترة كافية.

أما الأسود فقد ضغط على كلماته وهو يحرك ذيله كالثعبان:

- راوغه أيها البشري، اخدعه، أنتم قد كبرتم، وتستطيعون الاعتماد على أنفسكم.

• • •

= آلو، أستاذ حسن، معي المهندس لو كنت تريد مقابلته.

- سآتي حالاً.

وفي دقيقة كنت في السايبر، وأمامي المهندس ومدير المكان، قال المهندس:

= أبلغني أستاذ سيد أنك على استعداد للتعاون.

- نعم، في الحقيقة.. أنا أحضّر الماجستير، و..

= نعم.. نعم، أريد أن أقول..

- وموضوعه يتطلب مني الرجوع إلى مصادر غيــر متــوفرة إلا على الشبكة..

= حسنًا، لكني أريدك أن تفهم..

- وبالتالي..

هنا لم يعد يتابعني، حتى أنا لم أعد أتابعني، كان مدير السايبر فقط يتابعنا ويهز رأسه مؤيدًا، بينما يضع المهندس رأسه بين يديــه، ويعتصره، عروقه تبرز، ووجهه يزداد حمرة، لا بد أنهم يضغطون عليه من خلالي، لا بد أنهم اخترقوه جزئيًا عَبري، لكنهم يحتاجون في عبورهم الكامل إلى خبرته، ها هو يتقدم إلى جهاز الكمبيــوتر ويعالجه، ينظر لي نظرة تجمع بين الانكسار والغضــب والاتهــام، الاتهام العميق، إنه يعرف، لا بد أنه يعرف.

قال بصوتٍ واهن:

= ابتعد عني.

رفعت صوتي فوق صوته:

- وهكذا عليّ أن أقوم بتحميل بعض الملفات، خاصةً ذلك الملــف المضغوط، هذا الذي أمامك، **All Colors**، هذا هو، نعــم، هكــذا، اضغط عليه.

= أنت لا تفهم، إنهم.. إنهم..

- شكرًا يا باش مهندس.

= ابتعد.

صاح بهذا في جنون وهو يدفعني، رأيت بطــرف عينـــي برنـــامج التحميل يبدأ، كدت أفقد توازني، ومدير السايبر واقف بيننا كالأبله.

جارٍ التحميل.. ضغط المهندس زر إيقاف التحميل عشرات المرات بلا جدوى، اندفع نحوي في شراسة:

= أنت لا تفهم، أيها الغبي، لقد جعلتني أساعدهم على العبور.

ثم حملق في وجهي صائحًا:

= ألا تعرفني؟ أنا جارك مهندس الكمبيوتر الذي يرقد جوارك فـــي غيبوبة مماثلة.

هنا نظرت له في دهشة، أعظم دهشة في حياتي، ورأيت لا شيء، اللا شيء يتراكم حولنا في كل مكان، أو في لا مكان، لم يعد هناك مدير سايبر، ولا سايبر، ولا شيء، فقط أنا والكمبيوتر والمهندس الذي بدأت أتذكره، تذكرت أنني أصبت في حادثة، وكان من آخــر الوجوه التي رأيتها في المستشفى قبل أن أهوي في الغيبوبة وجه جاري في الحجرة، المهندس غانم، مهندس الشبكات الذي عرفني بنفسه وتبادلنا كلمات.

= نعم يا حسن، نحن في الغيبوبة لكننا في عالم آخر، أنت لا تحلم، كل هذا حقيقي، نحن تحت رحمة برنامج الكمبيوتر العملاق الــذي

يتحكم في أجهزة الإعاشة التي تتصل بنا، والذي تتصل بـه كـل المستشفى رقميًا، وهذه الملف المضغوط يحوي فيروسات عاقلـة خطيرة لها ذكاء صناعي جبار، لو تعدت حائط النار - وهي تفعـل ذلك الآن - لأبادت كل المستشفى وغزت عقول البشر، إنها ليست مجرد فيروسات رقمية بل إن لها طبيعة مزدوجة لم أفهمها حتى الآن لكنها قادرة على التحكم في العقول، يومًا ستتلبس هـذه الشياطين الفيروسية أجساد البشر وتحكم العالم، نحن في خطر يـا حسن، العالم كله في خطر.

وقفت كالأبله لا أعرف ماذا أفعل، حاولت بدوري إيقاف التحميل لكن لم يحدث شيء، رفعت الجهاز وألقيته، ثم رفعته وألقيته، ثـم تخيلت أن ذراعي تحولت إلى سيف وقطعت رقبتي، ثـم قطعتني نصفين، ثم شققت صدري وانتزعت قلبي ورميته بعيدًا، ثم تخيلت أن المهندس سمكة قرش وأنه يبتلعني.

وبرغم ذلك.. تم التحميل بنجاح، لقد حاولت إنقـاذ العـالم قـدر استطاعتي، وأكتب هذا التقرير الذي يسجله كمبيـوتر المستشـفى برغم غيبوبتي، ليكون دليلاً على براءتي وبراءة المهنـدس، لقـد تعرضنا للاختراق، ولم يكن بوسعنا في قبضة تلك الشياطين غيـر ما كان، وأعرف الآن أن أحد الفيروسات اللعينة - لعله الأزرق - يكتب الآن:

"وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لـــي، فـــلا تلوموني ولوموا أنفسكم"

لكن لا تصدقوهم.

إنـهم يكذبون.

دائمًا يكذبون.

• • •

الشرنقة

بصقة كبيرة مغرية بالجلوس على ضفتها وتأملِ الوجود من حيث استوتْ على التراب.. كان هذا هو كل العالم في نظري.

مسح شفتيه بعضهما ببعض، ثم أدخل رأسه من نافذة المرسيدس وأغلق الزجاج، كانت ملامحه صارمة جافة تكـاد تتشـقق كـأن البصقة استنفدت كل ما في جسمه من الماء، وبرغم أنني صرت لا أشمئز كثيرًا من منظره وهو يبصق إلا أن فِعل هذا في ميدان عام بدا لي مشينًا لا يتناسب مع طبقتنا الاجتماعية.

- لم يكن هذا ضروريًا يا باشا.

= بل هو ضروري مع تلك الديدان التي جمعـت بعضـها بعضًـا لتضرب عن العمل، ما الذي يريدونه؟ إنهم لا يعملون سوى ثماني ساعات بينما يعمل العمال في الغرب اثنتي عشرة ساعة متواصلة.

رفعتُ أنفي في غضب..

= هكذا دائمًا عمال النسيج، كأن المصنع مصنع أبيهم، إنهم أكثر العمال تمردًا لكني سأعرف كيف أربيهم، فلتتجه بنا إلى جروبي يا أسطى، سنتناول العشاء هناك.

كنتُ أعرف أنه سيحاول أن يطيب خاطري بشيء من هذا القبيل، إنه يعلم كم أحب جروبي، وهو يحاول استرضائي كلما أبديت الغضب لكن بدون استسماح مباشر، إنه تاجر ويعرف أن زيادة الطلب ترفع السعر، لا بد وأنه يريد ليلةً هادئة بعد عشاء كهذا، سأدعي التوعك أو أي شيء، خاصةً وأنني يجب أن أكون مستعدة للقاء (عبيد) غدًا، أو ربما عليّ أن أتعشّى بالباشا وأحلّي بعبيد، أعتقد أن هذه القائمة مناسبة.

• • •

ظل عبيد يدور في الحجرة بنشاط أورثني العصبية منذ عرفته، وقال بصوته المعدني اللامع:

- اسمه (يسري باشا أبو الفتوح) صاحب عدة مصانع للغزل والنسيج في مصر، إنه ليس كسلفه الذي كان أضعف من قمع تحركاتنا بين عمال النسيج الأكثر تمردًا بحكم طبيعتهم.

طقطق أحد الزملاء بلسانه معترضًا وصحّح:

= بحكم وضعهم الطبقي.

- بحكم وضعهم الطبقي، وهذه هي المشكلة، لو استطعنا إزاحته بشكل ما لاستطعنا استعادة نفوذنا.

نظرتُ إليه في حيرة وتوجس من هذه النغمة الجديدة، وهمستُ:

- إلامَ تُخطط يا عبيد؟

- إن ما أقوله واضح، لهذا جمعتكم هنا في اجتماع عالي السرية.

نهض أحد الزملاء متحمسًا وهو يسأل في براءة:

- كيف نغتال يسري باشا يا عبيد؟

• • •

كان الباشا يكافح في حضني كفاحًا حقيقيًا، إن عبقرية الرأسمالي لا تصلح في هذا الموقف، لو كافح هذا الكفاح مع العمال لانتهت الشيوعية من العالم كله في ليلة، لا ريب فعلاً أنني أحتاج للتحلية، طَردتُ من ذهني خيال عبيد حتى لا أستهلكه، وأطلقت بعض التأوهات، بينما يطفئ هو شموعه في لحمي، ثم أظلم كل شيء..

كان (هيثم) أيضًا يحبني، ويتمنى لو يبيع نصف عمره مقابل ليلة معي، لكنه لم يجد مشتريًا.

• • •

نهض هيثم بدوره معترضًا:

- ولماذا نورط أنفسنا وكل من معنا من الرفاق في عمـل خطيـر كهذا؟

= للأسباب التي قدمتها يا هيثم، لقـد صـار هـذا ضـروريًا وإلا فلننتظر ضربته القادمة.

- وهل الباشا وحده السبب في تراجع نفوذنا؟ ألسنا نعـاني مـن زيادة نفوذ الإخوان والخلايا الأخرى وتنظيم الطلاب المنشفيكيين؟

= لن يكون هناك دور أقوى من ذلك للإخوان، أما الآخرون فنحن نعرف كيف نتعامل معهم، وأول خطوة للسيطرة على كـل هـؤلاء هي استعادة سيطرتنا على القيادات العمالية.

أذكر كيف جلس هيثم مفكرًا ولم يـرد، حتـى أن عبيـد المولـع بالمناقشة والتحدي قد خاب أمله.

• • •

"مرحبًا يا شهرزاد"

احتضنته بقوة وسط الزملاء مما ضايقه، فما أن انفرد بي في ركن المكان حتى لامني:

- ماذا يقول الزملاء عنكِ؟

= خائنة لزوجي الباشا؟ كلهم يعرف علاقتي بك يا عبيد، وأنا فـي نظرهم مناضلة، كل شهرزاد مناضلة بالفطرة.

- هل حققتِ تقدمًا؟

= أتيت بمعلومات جديدة عن استمالته لأحد القيادات العمالية..

- سحقًا للمعلومات! أقصد بخصوص خطة الاغتيال.

ابتعدتُ قليلاً ورفعت حاجبي الأيسر، لمعت عيني حين قلت:

= أقنعتُه.

فالتمعت عيناه أيضًا.

• • •

كان الباشا يتجول بين الصناديق مغمغمًا:

- لا أدري ما الذي تحبينه في هذه الأشياء المقززة، هـذه أتفـه هواية سمعت عنها.

= لا تقل ذلك، أنا أحبها يا حبيبي، أحبها، كما تحب أنت (روي).

لعق روي كفه في سعادة وهو يقول:

- هاو.. هاو.. هاو.

• • •

اتسعت عينا هيثم في جدية وهو يلقي محاضرته التثقيفية:

- "مشكلة الماركسيين الكلاسيكيين أنهم حاولوا تطبيـق مـاركس ككتاب مقدّس محرّف، ماركس الذي قال عـن نفسـه إنـه لـيس ماركسيًا، ومشكلة السوفييت أنهم بنوا دولة للدفاع عن الماركسية،

ثم بنوا ماركسية مزيفة للدفاع عن الدولة، سنكون حمقى لو قبلنا موقفهم من قرار تقسيم فلسطين.

"إننا نحتاج لماركسية جديدة، تتواءم مع واقعنا وتستقل بنا عن السوفييت، إن الدين مثلاً ضرورة إنسانية، هناك أيضًا علوم أخرى نستطيع الاستفادة بها غير الكيمياء والفيزياء والاشتراكية العلمية."

كنت متعصبة قليلاً حين قاطعته في حسم:

- اسمح لي، أنا آسفة، لكنك تخرّف.

• • •

كان الباشا مشغولاً، وكان عليّ أن أبتكر حجة للهرب من البيت أو على الأقل من غرفة النوم، يجب أن يبيت وحده أسبوعًا في هذه الغرفة، ووجدتُ أن مرض أمي حجة جيدة، حين أعود لن يكون هناك باشا، ستسقط الألقاب، وربما أكثر..

• • •

ضاقت عينا هيثم في خطورة:

- إياكِ أن تبيتي معه هذه الأيام، احذري دخول الغرفة أو الغرفة المجاورة التي وضعتِ بها الصناديق، ولكن اتركي الصناديق

مواربة، ولا تغلقي باب الحجرة بإحكام، لو فشلنا هذه المرة يمكننا أن نجرب مرة أخرى.

قال عبيد عاقدًا ساعديه على صدره:

- أتمنى أن يُجدي كل هذا في النهاية.

- سترى يا رفيق، نحن اقتربنا من النهاية.

• • •

حرصتُ على التأكد من أنني مبكرة، وأن الخدم لم يبدأوا يومهم بعد، وتسللتُ إلى الحجرة، كنت أستطيع معرفة النتيجة حتى قبل دخولها وأنا أرى الخيوط التي عبرت تحت بابين من غرفة لأخرى، أدرت المقبض في حذر وفتحت الباب بصعوبة لأنه كان ملتصقًا، وبصعوبة أكبر ميَّزتُ وسط كل فوضى الخيوط ذلك الكفن من الخيوط اللامعة بحجم وهيئة رجل بالغ ينام على السرير، لقد حدثني هيثم أنني سأرى هذا الشكل.

كانت الرائحة رهيبة.. وفي رعب ورجفة خطوت نحو الشرنقة، قلبتها على جانبها، فوجدت بها فتحة طولية كبيرة، ووجدتها فارغة.

• • •

أنهى الضابط فنجان قهوته بعد أن أدركنا الصباح، وأنا أكف عــن الكلام الذي صار فرضًا والبكاء الذي ما يزال مباحًا، أشعل سيجارةً ولم ينظر لي وهو يقول:

- وتتوقعين أن أصدق كل هذا؟

= ....

- ثم لماذا تعترف واحدة مثلك على زملاء خليتها؟

= لأنه يجب أن ينتهي كل هذا.

وفتحت حقيبة يدي وأنا أستنشق الدموع الباقية، وأخرجت منهــا ثلاثَ صور:

= هذا عبيد.

- وبالتأكيد هذا هيثم.

= نعم، وهذا...

- هذا تخريف، ولا يبرر اختفاء يسري باشا.

أزاح صورة الفراشة العملاقة التي أضاءها الفلاش فــي المشــهد تحت السرير، ثم نادى الصول.

• • •

كانت الزنزانة مظلمة لا يخترق سوادها سوى شعاع نحيل، ســقط على الحائط، فبدأتُ أرحل إلى بؤرته، وبدأت أرى.. عبيــد وهيــثم يقفان منتصرين في شرفة مكتب مدير مصنع النسيج فــي ضــوء

الشروق، وفي الفِناء وخارج المصنعِ، في كل مكان، كان آلاف من عمال النسيج يلفون بالخيوط كل شيء، كل شـــيء، كـــآلاف مـــن ديدان القز العملاقة، الخيوط تغمر الوجود، والعـــالم يتحـــول إلـــى شرنقة، وعبيد يرفع قبضته في نشوة صائحًا:

- أيها الرفاق..

ومن حوله وفوق رءوس العمال حلقت أسراب هائلة من فراشـــات عملاقة ذات ألوانٍ زاهيةٍ، جميلةٍ جدًا.

• • •

أباسْيُوناتا

البداية المتجهمة العجيبة، التي توحي لك أنــك تســمعها بعــد أن بدأتْ، أو أنك تسمعها بالفعل منذ ثوانٍ دون أن تنتبه، ثــم تــزداد تجهمًا وغرابة، وعنفوانها الكامن يُعلن عن نفسه في بطء كوحشٍ يرفع رأسه من سطح البحــر، لكــن طابعهــا المأســاوي محكــم السيطرة، ويمنح مع لمحاتها الثائرة العنيفة طابعًا منذِرًا بالنهاية، نهاية شيءٍ ما، أو أيِّ شيء، أو كل شيءٍ، خاصةً حينما يعزفهــا بيتهوفن.

كانت القاعة متوسطة الحجم مليئة بجمهوره وتلاميذه، كان الكونت فالدشتاين حاضرًا وهو يُطلق بعض همهمات الاستحسان من حينٍ لآخر، ورغم أن بيتهوفن لم يكن يطيق أن يتكلم أحد أثناء عزفــه، إلا أن العالم قد عرف بالفعل بأمر صممه، وصار بإمكان البشــرية أن تتكلم، العيون تلتمع بإعجاب، لكنني كنت ألاحظ واحدًا التمعــت عيناه بطبقة دموع، كان هذا فرانتس شوبرت.

بيتهوفن يصعد السلم وينزل، يصعد وينزل، كالأمواج، إنها تـأتي وتغطي كل شيء، ما التي تأتي؟ لا أدري، لكنها تفعل هكذا، الطابع الرؤيوي الختامي يوحي بهذا، عند هذه المرحلة كانت دموع شوبرت تلتمع في خطوط متصلة خلف منظاره الطبي، وعلى وجهه نظرة حنين كادت تبكيني أنا نفسي.

ثم تأتي النهاية الشبيهة بالمطاردة، نغمات تكر ونغمات تفر، لا شيء يوحي هنا بالنجاة، الكل في قبضته، والنهاية لا مفر منها، بالفعل يضرب بيتهوفن ضربتين حاسمتين على البيانو لينتهي كل شيء، الحق أنها صوناتا عظيمة.

• • •

- هِرْ شوبرت، أنا صحفي من (المدارات الجديدة)، وددتُ لو شرفتني بحوارٍ معك.

= أهلاً هِر..

- ليوبولد.

= أهلاً هِر ليوبولد، لا أرتاد للأسف هذه الأماكن الراقية كثيرًا، ويؤسفني أنك ستضطر لإكمال الحديث معي ونحن في الطريق إلى الحانة.

- لا مشكلة يا سيدي.

وفي الطريق ثم في الحانة أجاب على كل أسئلتي، لا أعرف السبب الذي جعلني أسأله عن رأيه في الأباسيوناتا بالذات..

= لكني لست ناقدًا يا هِر ليوبولد..

ربما لأنني تذكرت كيف كان يبدو وهو ينصت إليها.

= وستجد غيري ممن هم أجدر بهذا السؤال..

ربما هو الفضول.

= أنا مجرد تلميذ لا يحق له إبداء الرأي في عمل الأستاذ..

ربما كان هذا هو السبب أصلاً في إجرائي الحوار معه.

- كما تشاء.

جرع أخر ما في قدحه، واستند إلى كرسيه، وقال في إرهاق:

= سأخبرك بقصة تأليف الأباسيوناتا التي لا يعرفها أحد غيري سوى مؤلفها، وستقتنع برأيي في النهاية حين أقول لك إنها أحد أهم أعمال الموسيقى على الإطلاق.

قلبتُ الصفحة وبدأت أكتب..

• • •

إن تاريخ كتابة هذه الصوناتا يرجع إلى ما قبل عام ١٧٩٦، أي قبل أن يعاني بيتهوفن أول أعراض الصمم، وقبل تاريخ كتابتها المعروف بثمانية أعوام على الأقل، وهي معلومة صعبة الابتلاع بسبب أسلوبها الذي لا يتفق مع أسلوب تلك المرحلة المبكرة،

للأسف لا يمكنك سؤال مؤلفها لأنه لن يجيب، كما أن ما سيلي سيفوق هذا عجبًا، كما سترى.

ومن الأخطاء الشائعة كذلك أنه قام بتأليف حركتها الثالثة أولاً ثم أتبعها بالأولى فالثانية، وهو ما لا حيلة للناس فيه لأن بيتهوفن كما قلت لك لم ولن يتكلم، والحقيقة التي أقول هي إن بيتهوفن بدأ بتأليف الحركة الأولى، وهي الحركة التي ندم أشد الندم على تأليفها فيما بعد.

في ذلك اليوم خرج بيتهوفن كعادته قبل الغروب في نزهته المنفردة بين النهر والغابة، جلس يتأمل الماء والسماء في سبيل فكرة جديدة، وأنت تعلم أن كثيرًا من مؤلفات الموسيقى تبدأ بجملة بسيطة عفوية تلفظها الطبيعة، نغمة طائر، حفيف شجرة، وشوشة موجة، ثم تعمل العبقرية على استغلالها ونسج عمل كامل منها، هذه المرة جاءه خيطٌ ذو لونٍ غريب، خيط غريب عن الطبيعة، يصلح ليكون عملاً تقلده الطبيعة نفسها، ولم يأت المساء إلا ولدى بيتهوفن فكرة كاملة عما يجب عمله.

ظل يعمل حتى انتصاف الليل، أنهى الصورة الأولية من الحركة الأولى لتلك الصوناتا، ثم ألقى بجسده الثقيل الهامد على الفراش وبدأ يحلم، وقبل الفجر استيقظ قلقًا، صحا على لحن الصوناتا كأنه

يُعزف على البيانو خارج غرفة نومه، كذَّب عقله وأذنيــه، نهــض في توجس، ماذا عساه يكون؟ ليست لديه فكرة.

وحين رأى البيانو تصلب في رعب، إن ما يُرعــب رجــلاً شــديد المراس قوي الأعصاب مثل بيتهوفن لا بد ألا يقل عــن بيتهــوفن نفسه، وكان هذا صحيحًا بشكل حرفيّ، خطا نحو البيانو في ذهول وهو يبصر جانبًا من ملامح العازف، ثم نظر في وجهــه مباشــرةً وهو منهمك في العزف في هيام، كان مثله في كل شيء، فقط بــدا أكبر سنًا وحجمًا، ربما أكثر أناقــة، ملامحــه كانــت أقــل كآبــة وصرامة، كان قد رآه لكنه كان مندمجًا في العــزف، مســتحيل أن تلتفت لشيء وأنت مندمج مع الأباسيوناتا.

ظل بيتهوفن يحملق في ذهول، ليس فقط للتشــابه، بــل لبراعــة العزف، كأنه يحفظها عن ظهر قلب، لــم تكــن أمامــه المدونــة الموسيقية، فكر بيتهوفن أنه يحلم، وفكر أنه جُنّ، وفكر أنه يــرى شبحًا، هز رأسه في قوة لينفض عنه النعاس، كــل شــيء يبــدو حقيقيًا والعازف ينهي المقطوعة ويستريح في مقعده، ثم ينظر لــه في وداعة.

صاح فزعًا:

- هل أنت شبح؟

هنا.. حملق فيه الآخر، ثم وجّه إليه أذنه كأنما لا يسمعه بوضوح.

- شبح.. شبح؟

نظر الآخر إلى شفتيه ليقرأهما، ثم هز رأسه متفهمًا، وقال:

- ربما، لا تستطيع أن تحدد، أنا الذي أراك الشبح يا هِر بيتهوفن.

- ماذا تعني؟

- أنا أيضًا مندهش من لقاء من يشبهني إلى هــذا الحــد، لكنــي أعرفك والعكس غير صحيح، فقط كانت تنقصني معرفة كيف أعبر، في الواقع كانت تنقصنا جميعًا.

- جميعًا..؟!

وتلفّت بيتهوفن حوله وهو يتراجع حتى الحائط.

لم يستطع أن يحدد: هل كانوا حاضرين من البداية أم ظهروا الآن فقط؟ لكنهم جميعًا هنا.

لودفيج الوليد الباكي.

لودفيج الطفل الذي جلس يداعب الوليد.

لودفيج المراهق الحالم نصف الحزين الذي كان يقف جوار النافذة ويرمق الليل.

لودفيج الشاب ذا النظرة الجادة الصارمة والشعر الثائر والجســد الربع يتابع المحادثة.

كل هؤلاء بيتهوفن.

كان بيتهوفن ينظر إليهم كمن وقع في فخ، كمن لا يجد مفرًا فــي الأرض أو من الأرض، بيتهوفن الشيخ ينهض أمام البيــانو فــي هدوء ويقول باسمًا:

- أنت من القلائل الذين عزفوها، لقد كنتَ مصيبًا حينمـا آمنـتَ دائمًا أن الموسيقى ليست مجرد فن، فعلاً، إنها القانون الذي بُنـيَ عليه الكون، لقد أدرك فيثاغورَس هذه الحقيقة التي لم يفهمها أحد حرفيًا.

أكمل المراهق مبتسمًا بدوره:

- لقد أوتيتَ أذنين حساستين يا مايسترو، لدرجة أنك تسمع هـذا القانون أحيانًا، لقد استمعت بالمصادفة إلى شـذرة منـه، لكنـك استطعت استنتاج البقية ووضعتَ هذه الصوناتا.

قال الطفل:

- لم نكن لنستطيع العبور قبل عزف الصوناتا.

عاد بيتهوفن الشيخ يقول في حرج:

- في الحقيقة عبرنا لكي نحل محلك، نحن أنت كما ترى.

قال بيتهوفن الشاب في صرامة:

- المشكلة أنك قادر على التنصت على القانون، وتستطيع بالتالي غلق المعبر يومًا، بل تستطيع العبور بالعكس فيما بعد لـو شـئتَ لتحل محلنا ونعود نحن إلى الظلام.

وضع بيتهوفن الطفل رأسه بين يديه وصرخ:

- أنا أكره الظلام.

اقتربوا من بيتهوفن والشيخ يقول:

- سنعطيك مهلة قبل أن تغادر بهدوء، قم بما تريد القيام به، لا مفر منا أبدًا لأننا وراء العالم، لكننا نريد أن نضمن أنك لن تستمع إلى القانون مرةً أخرى، لا حل سوى أن نجردك من سمعك الفريد.

قال المراهق:

- أليس هناك حل غير هذا يا لودفيج؟

رد الشيخ:

- لا يا لودفيج.

- لكن هذا ظلم.

أجابه الشاب غاضبًا:

- لا تناقش يا لودفيج، لا أحد يناقش لودفيج، إنه الأكبر والأحكم.

قال الشيخ:

- اعذرني يا مايسترو، لكنك تفهم ضرورة ذلك.

- ابتعد، ابتعدوا جميعًا، أنتم لستم حقيقة، أنتم وهم، وهم.

- ....؟

- ماذا تقولون؟

- ....؟

- ماذا تقولون عليكم اللعنة؟

- (بصوتٍ أعلى) هل تسمعنا؟

• • •

تابع شوبرت:

= هكذا بدأ بيتهوفن يفقد سمعه تدريجيًا في مقابل أن يبقـــى فـــي عالمنا فترة أطول، لكنه سيرحل قريبًا، كما رحل موتســـارت مـــن قبله بالطريقة نفسها.

كنت قد وصلت إلى قمة الاستخفاف والاستمتاع، ربما لعبت الخمر دورًا في استهتاري بما قال، فقلت:

- وموتسارت أيضًا زاره موتسارت طفل ومراهق وشاب وشيخ؟

= بل وامرأة أيضًا.

- هاها.. وامرأة كذلك؟

= إن لكل منا في ذلك العالم كافة التنويعات البشرية الممكنة، هناك بيتهوفن امرأة لكنها لم توجد بعد، ويومًا ستظهر في هذا العـــالم، كلهم سيظهرون هنا بسبب البوابة التي فتحها بيتهوفن، لكنهم لـــن يفصحوا عن أنفسهم، إنه قدَر بعض الموسيقيين، لكن الأباسيوناتا قدر البشرية، اضحك الآن أمامي لكنك ستخرس أمام أشباهك.

ونهض شوبرت غاضبًا، جلستُ قليلاً أستجمع نفسي، ما كان لـــي أن أغضبه لهذه الدرجة، ما الضير في أن يمزح؟ المهم الآن أنـــه معجب بالصوناتا كما بدا في قصته، نهضت خلفه لكنـــه كـــان قـــد غادر الحانة، أوقف عربةً واستقلها، ولوّح لي بيده مودعًا، وفـــي الوقت نفسه تقريبًا توقفت عربةٌ أخرى أمام الحانة، ونـــزل منهـــا رجل، كان هذا فرانتس شوبرت..

الشبكـــيّة

- ماذا رأيت؟

= رأيتُ كلبًا برأسين.

- وماذا أيضًا؟

= آخَر بثلاثة رءوس.

- وماذا أيضًا؟

= حصانًا مجنحًا،

ورأيتُ أبا الهول،

ورأيت غولاً،

ورأيت زاحفًا مجنحًا،

ورأيت أطرافًا آدمية تتحرك وتزحف على الأرض والجدران،

ورأيت رجلاً من نار وامرأةً من ماء،

ورأيت أيضًا زهورًا ونباتات من زجاج،

وكانت حيةً،

وتنمو،

ورأيت محَارًا فيه عيونٌ حيةٌ دون رءوس،

ورأيت رءوسًا دون أجساد،

ورأيت نساء حوامل ببطونٍ شفافة،

ورأيت الأجنة تسبح في البطون،

ورأيت أجسامًا بلا جلودٍ،

ميتةً،

ورأيت هياكلَ من جلودٍ كاملةً حية،

ورأيتك وأنت تستجوبني هنا،

ورأيت أنني جالس أقول كل هذا أمامك،

ورأيت أنني أراك،

وأنت ملقًى دون جلدٍ في الطريق،

عاريًا،

وميتًا.

....................!!

أنت الذي طلبتَ أن أقول ما رأيتُ.

• • •

كنتُ أرى الكائنات في كل مكان، كنت ألتفت لهم وأحدثهم، أو أطردهم بيدي، هكذا عرف الناس أنني مجنون، كنت أنا أخر من يعرف، ولكنني قبلت في النهاية قرار أبي بدخول تلك المصحة النفسية في لندن، وهو قرار أسهل نسبيًا في المجتمع الغربي، إن

المجتمع المصري الذي جئت منه مع أسرتي لا يعترف في الغالب بالمرض النفسي ولا بالعلاج النفسي، وقد خضعت في المستشفى للفحوصات اللازمة وجداول الأدوية، ومرت أيام دون أن أرى شيئًا، أو دون أن يراني شيء.

ثم بدأت أرى..

عاد كل شيء كما كان، ومن ثم فقدت ثقتي في الأدوية والتشخيص، وعدت إلى اعتقادي السابق بأنني من أعقل العقلاء على الأرض، وأن ما أراه له تفسير لا يعلمه أحد، وبالطبع لم يصدقني سوى من كان لديه الاستعداد المسبق، أعني الدكتور هُورْكْهايْمَر.

هوركهايمر طبيب من أصل ألماني متوسط العمر، متوسط الشهرة، متوسط الذكاء، لكن لا أحد مثله في الطموح والإلحاح على النجاح، ولا عجب أنه تنقَّل بين عدة تخصصات تبدأ بالعيون وتنتهي بالأمراض النفسية والعصبية، إن الطموح هو مُحرِّك التاريخ، لكن طموح هذا الرجل كان نهاية التاريخ.

ما زلتُ أذكر يوم جاء إلى حجرتي وأبدى تفهمًا كبيرًا لحالتي، وصرَّح لي أنه ليس مقتنعًا مثلي بسلامة التشخيص، لكنه لم يقدم البديل، لم يشرح أكثر لكنه أخبرني بنظرية غاية في الغرابة:

- نظريتي تقول إن ما تراه موجود، ليس موجـودًا فـي العـالم الخارجي، ولا في عقلك، لكنه موجود في عينك، تطـوعْ لخـوض تجربتي، وقد يساعدني الفهم كي أساعدك.

وكانت التجربة غاية في السرية، تعتمـد علـى جراحـة دقيقـة لاستئصال جزء من شبكيتي ثم فحصه بطرقٍ معقدة، وقد مـررت بالتجربة بعد صعوبات كثيرة جدًا، وبعد كل هـذا.. لا شـيء، لـم أسمع بعد ذلك عن الدكتور لمدة طويلة، لدرجة أنني نسـيت كـل شيء عنه مع ما نسيت عن العالَم، جاءني الممرض الذي ربطـت بيننا لُعبـة الشـطرنج، وأخبرنـي أن د.هوركهـايمر يريـدني.. هوركهايمر؟ الطبيب المجنون؟ المفترض أنك أنـت المجنـون يـا عزيزي، اخرج وقابله.

كان متعجلاً ولم يشرح شيئًا كعهدي به، ارتدِ ملابسك وتعال معـي إلى المعمل، هل هذا بشأن فحص الشبكية إياه؟ لم يرد، ولم أتأخر، قاد السيارة في صمت، اصطحبني إلى باب معمله في صمت، دلف إلى الداخل في صمت، تحدث في صمت، ستنبهر، صدقني ستنبهر، سترى ما لم يرك إياه الجنون، أنا فخور جدًا بعملي ولن أقبل لـه انتقادًا، ولم أنوِ انتقاده على كل حال.

لكنني لم أنبهر لأنني لم أفهم، فتح الباب المؤمَّن ببطاقة ممغنطـة وجهاز لقراءة البصمة، وكان قد أجبرني على ارتداء زيّ خـاص

أشبه ببدل الجراحة، وأن أمرٌ بمرحلة من التعقيم، كل هذا ليُضيء النور فأرى أمامي حجرة دون نوافذ مُغطاة بورق حائط أسود يبطن الجدران الأربعة، فقط جدران مغطاة، ليس فيها أحد أو شيء، لكنني حين دققَتُ رأيتُ أنابيب دقيقة جدًا، آلاف الأنابيب تدخل وتخرج من الحوائط قرب الأرضية والسقف، وتتجمع في أنبوبين كبيرين أحمر وأزرق يمران عبر أحد الجدران إلى حجرة مجاورة.

= أين أنا بالضبط؟

- أنت في عينك، نحن الاثنان في عينك.

ثم رفع عينيه إلى أفق غير مرئي، وتابع حالمًا:

- لقد حققت أعظم تجربة أنجزتها البشرية منذ شطر الذرة، هذا الذي يبطن الحجرة نسيج شبكيتك الذي استنسختُه بآليات متطورة، وبالتالي استطعت في النهاية تخليق عين عكسية مُجسِّمة للداخل، عين ترى داخلها دون مجاز، ترى بالعكس، تعال معي.

خرجنا من الحجرة إلى الحجرة المجاورة بعد أن أحكم ثانيةً غلق الأولى، ثم جلس أمام جهاز كمبيوتر واضح أنه يتصل عبر حِزَم من الأسلاك بالعين المجسمة للداخل على حد تعبيره، هل يلعب هذا الجهاز إذن دور المخ أو الأعصاب في المقابل؟

- بل يتحكم في العين ويجعلنا نرى ما فيها، سترى الآن أن الأمر لا يحتاج لكي تُبصر هذه العين إلى مخ..

ثم ضغط عدة أزرار متابعًا:

- .. بل إلى عدسات.

بالفعل ارتسمت على الشاشة صورةٌ للحجرة ببطانتها السوداء، ثم رأيت جدرانًا شفافة تهبط في بطء من السقف، صـــارت الحجـــرة أربعة جدران سوداء تحيط بأربعة جدران شفافة، فأضاءت علامـــة إنذار على الشاشة تفيد حظر دخول حجرة العين، ثم..

- لقد جئت بك لتخبرني إذا ما كنت ترى هذا.

أول ما رأيت كان البطيخ، البطيخ الحـــيّ الـــذي كنـــت أراه فـــي هلوساتي بفمه العريض وأسنانه البارزة، كانت لهذا البطيخ عـــادة سيئة حين يبدأ بالقفز والصراخ بصوت حاد، بالفعل بدأت خمس أو ست بطيخات يقفزن ويصرخن داخل الزجاج، ربما مـــن الجـــوع، نظرت إلى هوركهايمر في ذعر ودهشة وانبهار لن يُجدي وصفه، فنظر لي بفضولٍ علميٍّ نهِم، وسألني:

- هل كنت ترى شيئًا كهذا؟

ازدردت ريقي بصعوبة:

= هل تريد أن تقول.. إن هذا ما هو موجـــود الآن فـــي الحجـــرة المجاورة؟

- طبعًا، لقد أخبرتك من البداية أن كل هذا يعيش في عينك.

ثم كرر في نفاد صبرٍ:

- هل كنت ترى هذا؟

= نعم.

- وهذا؟ هذا هو ما ظهر لي أمس.

= نعم.

- وهذا؟

= نعم.

- وهذا؟

= كل هذا، كل هذا.

أغلق برنامج الصور وسألني:

- هل كنت ترى ذلك بترتيب معين له دلالة؟ أي ترتيب وأي دلالة؟ أم كنت ترى كل ذلك متفرقًا، مجرد كائنات؟

= متفرقًا، مجرد كائنات.

ثم أمسكتُ بذراعه متوسلاً:

= كيف استطعتَ؟ أنت عبقري، أنا أؤمن بك، لكن أخبرني.

استرخى في مقعده في خيلاء وعيناه المجنونتان تتألقان، وتتابعان البطيخ على الشاشة حيث راح يُحطم بعضه بعضًا ويسفك عصارته الحمراء لتلوث كل شيء:

- إن شبكيتك الآن تعيش في دورة صناعية بالضبط كدورة الدم، ولم أعرف بعد السبب.. لكن شبكيتك تملك هذه الخاصية الفريدة على التخليق المادي، لقد أجريت التجربة كثيرًا على مرضى آخرين دون تخليقٍ واحدٍ.

= د. هوركهايمر.. هل هذا آمِن؟

- وما الذي يمكن أن يحدث؟ لو خرجت هذه الكائنات عن السيطرة أستطيع قطع دورة الدم والغذاء والأكسجين عن الشبكية فيتوقف البثّ.

= لكن يا دكتور..

صمتُّ مرغمًا، إنه في تلك النقطة التي تمتزج فيها العبقرية بالجنون في حين تزيده نشوة الإنجاز جنونًا ويزيده الجنون ابتكارًا، كنت أنظر إلى الشاشة التي كانت تنقل في تلك اللحظة مشهد السحالي العملاقة بحجم الرجل البالغ، وهي تنقّب في أشلاء البطيخ، إنها مخلوقة حديثًا وتحتاج طعامًا، حملقتُ في الشاشة بدهشة، فالتفت لي قائلاً:

- هل هذا جديد عليك؟

= لا يا سيدي، بالمرة، الجديد هو صوتها، هذا هو صوت البطيخ.

- ربما كان صوتها.

= أنا أعرف صوتها.

- ومعنى هذا؟

= معناه أن هناك بطيخةً على الأقل ما زالت حية.

- ولكننا لا نراها.

= لأنها ليست هناك..

ثم قفزت فوق مقعدي واقفًا صارخًا:

= .. إنها هنا.

أمام عيوننا المتسعة كالآبار دخلت علينا من الباب المفتوح أربع أو خمس بطيخات صارخات، قفز الدكتور من مقعده وتراجع حتى الجدار وهو يهتف:

- كيف؟ كيف؟ كيف؟ كيف؟..

لا أدري لماذا يُضيِّع الإنسان أخر لحظات حياته في أسئلة لن تنفعه في الدار الآخرة، بينما يلتهمه البطيخ.

• • •

عرف العلماء والأطباء القصة، وكان التفسير أن (نظام هوركهايمر) - كما اصطلحوا على تسميته- لم يكن محكمًا، وأن الكائنات المُخَلَّقة ضمن هذا النظام تجمع بين طبيعتي المادة والصورة، وأنها من الممكن أن تتسرب عبر الأسلاك والشاشات وتتجاوز حدود الماديات كالصور والمَشاهد، كما أن بإمكانها التأثير في الماديات كالأجسام، والنتيجة: أنها كارثة تُهدد الأمن العام الآن، لأن الكائنات تسربت وتعيث فسادًا في الأرض.

وبرغم تدمير العين - عين هوركهايمر العكسية - إلا أن آثاره وأوراقه تُفيد وجود عيونٍ أخرى من الشبكية نفسها للأسف، ولما لم تستطع الشرطة العثور عليها بكل قوتها لم يكن أمامهم سوى..

• • •

- وماذا أيضًا؟

= سترون كذلك باتمان وسوبرمان والرجل العنكبوت والمرأة القطة.

- وماذا أيضًا؟

= سترون كل ما جاء في قصة أليس في بلاد العجائب للويس كارول، راجعوها لأنها مستقبلكم الآن.

- وماذا أيضًا؟

= سترون الأشجار المتحركة التي جاءت في فيلم سيد الخواتم، وسترون.. ولكن.. قد لا يكفي الوقت لذلك.

قلتها وأنا أشير إلى النافذة، فالتفت المحقق، ثم نهض في ذهول تام، كانت الطابيات العملاقة بحجم البنايات تكتسحن كل شيء في حركاتهن المتعامدة المتصلة، في حين دمَّر البيادق في الأفق عدة مبانٍ، ووسط الغبار بدا رأس الملك الصليبي وهو يستعد لدخول لندن، كان الدمار شاملاً والضجة تعلو مقتربة، إن الملكات (أو الوزراء) سيدمرن المدينة لأنهن لا يعرفن الرحمة.

التفت لي منهارًا وقال في شبه بكاء:

- إنها نهاية العالم، نهاية العالم.

= هذا تأثير لعب الشطرنج مع الممرضين في المستشفى، إن شبكيتي تُكرر دورًا حامي الوطيس، وهي المرحلة قبل الأخيرة.

- قبل الأخيرة؟

= قبل أن يأتي هوَ..

اتسعت عيناه محدقًا في وجهي برعب، وقال بصوت كالفحيح:

- هوَ؟؟!

نظرت إليه مباشرةً كقسٍّ يتقبل اعترافًا، وسألته:

- هل تؤمن بالله يا سيدي؟

فانهار الرجل في مقعده.

وفي الأفق كانت الأرض تنتفض كسجّادة، وكل من عليها فانٍ، ووسط الصخور والشظايا والأعاصير وسماوات الغبار كان يشق طريقه بلا رحمة، إنه عظيم، فخيم، مُطلق السيطرة، كانت العمائر تتصدع من مَرآهُ قبل أن يمسها، لن تجد موقفًا أشد رهبة.

كانت بريطانيا كلها ترزح تحت ثقله، وكانت تغرق..

تغرق..

• • •

موعدٌ قبل الميلاد

في البداية لم أتبين مشاعري نحوها، ربما كانت أجمل أو أقل جمالاً، ربما أحببت فقط امتلاكها، كانت تنتابني هذه الأفكار كلما رأيتُها قادمة بقامتها الفارعة وملامحها الأرستقراطية وعينيها الحزينتين، وأمام هاتين العينين أحسستُ منذ البداية أنني خسرت المعركة، هذه الفتاة تملك حزنًا لا أقدر عليه، حزنًا فريدًا كجوهرة تداريها في صدرها ولا تريها لأحد، وتجعلها شامخة أعلى من الآخرين، لأن لها الحزن، ولهم الدنيا، هكذا عرفتُ يمنى، وهكذا عرفت أن يمنى لن تجدني وأنا واقف أمامها، ولن تجد أحدًا في هذا العالم، لأن الأعين الحزينة لا ترى إلا داخلها.

برغم ذلك أكلنا معًا الشطائر الساخنة، وتبادلنا هدايا عيد الميلاد المعطرة، وتحدثنا في أشياء كثيرة بعضها هو الحب، ربما لأنني رأيت أن الحب وهم، وأنها رأت أن الحب حلم، فظل الواقع يعلو بعادمهِ وضوضائه وزحامه بين وهمي الذي ليس لي، وحلمها الذي لها وحدها.

ومرَّت الأيام وعرفنا أننا مهما كنا معًا فلن نظل، وأن الوحدة معنى من معاني الأبدية، وأن علينا أن نكون بالغين بما يكفي لنعيش الخلود، ونكتفي من الشجرة بأوراقها الخضراء دون أزهارها أو ثمارها التي تؤتيها في أربعة الفصول.

- هل هناك آخَر؟

= لا.. وهل هناك أخرى؟

- لا.

= هل أحببتَني؟

- أنتِ أبعد من أن أحبك أو أقرب.

= كيف تشعر بي؟

- أخاف عليكِ.. أريدك..

أدارت ظهرها لي، وخفضت رأسها وقالت:

= لكني لن أكون لكَ.

- ولم؟

= لأن هناك أخرى لا تعرفها.

- من؟

= أختي.

- أختك؟

= هي أيضًا تحبك، لقد شعرتْ نحوك بما فشلت أنا فيه، أنا ثمرة فشلت أن تنضج في موسمها أو زهرة سقطت في الربيع، إنني لست امرأة.

هوى كل هذا على رأسي كالطود المعظَّم، كنت أعرف أختها التوأم وتبادلت معها عبارات عابرة في الهاتف، وكانـــت يســـرا دائمًـــا حاضرة غائبة، لا تتحدث يمنى إلا عنها، وتدريجيًا بدأت أفهم مدى تأثيرها عليها، وأنها لا تلبس شيئًا إلا لأن يسرا تلبس مثلـــه، ولا تذهب إلى مطعم إلا لأن يسرا تذهب إليه، وربما فعلاً أحبتني لأن.. لأن يسرا أحبتني.

- من التي أراها الآن؟ يمنى أم يسرا.

= يمنى.

- ومن التي أحببتها؟

= يمنى لأنك لم ترَ يسرا.

- ماذا تعنين؟

= أعني أن عليك أن تراها.

- وإذا رفضتُ؟

= لن ترى يمنى ولا يسرا.

• • •

لم أفهم قط مشاعرها، فكرت في هذا وأنا ذاهبٌ إلى بيتها لزيـــارة والدتها المقعدة المريضة التي كانت طبيبة ناجحة فـــي يـــوم مـــن الأيام، ومعي علبة الشيكولاتة، قلت لنفسي إنني لن أخسر شيئًا لو قابلتها، لكنني خفت أن أتعلق بها، كان خوفًا باهتًا لكنه ظل هناك.

دخلت البيت الفخم الشاسع للمرة الأولى، كان كئيبًـا أقـرب إلـى مستشفى، البياض في كل مكان، والستائر مظلمة في كل وقـت، لا أعتقد أن جميع بيوت الأطباء على هذا المسـتوى المعجـز مـن الكآبة، رحبت بي والدتها بفتور الشيخوخة، وجلست أشعر بالحرج حين انصرفت يمنى لشأن ما، لم أستطع تبـادل سـوى عبـارات محدودة مع والدتها التي لم أشعر منذ الدقائق الأولـى أن عقلهـا على ما يرام، وحين عادت يمنى بعد دقائق سألتها في مرح عـن أختها، فردت أنها مريضة لا تستطيع النزول من الـدور العلـوي، وأنها كانت تحمل إليها الطعام، وفهمت مـن لهجتهـا أن مـرض أختها ليس عابرًا، وأنها الأخرى قعيدة كأمها أو شبه قعيدة، وكنت أظن أن يمنى ستأتي بأختها برغم ذلك من لهفتها أن ألتقيها فـي اللقاء السابق، لكن الجلسـة انقضـت دون أن تبـادر، ورحلـتُ مندهشًا.. ومحبطًا لو توخيت الصراحة.

• • •

في اللقاءات التالية بدأت أظهر غضبي، إما أن تكوني لي، وإما أن تريني أختك كما اشترطتِ، فترددتْ، ومن هنا وبمرور الأيام بـدأت تتشكل تلك الصورة الأسطورية ليسرا التي لم أرها ورأيت يمنـى، ووجدت أن الحل الوحيد هو أن أتحرك بشكل منفـرد وأن أتصـل بهاتف أختها وأن ألقاها، وكانَ، غير أنها أصرت علـى أن يكـون

اللقاء في حجرتها، وكنت في تلك الفترة من شبابي مغامرًا مجنونًا فوافقتُ، وصفتْ لي مكان حجرتها، ووضعنا خطة مناسبة.

في اليوم التالي كنت أجلس مع الوالدة القعيدة ويمنى التي صعدت كالمرة الماضية لتحمل إلى أختها الشاي والبسكويت ثم عادت، طلبتُ دخول الحمّام واستأذنتهما، صعدتُ إلى الدور العلوي وغبت عن نظر الجميع، وبدلاً من الحمام بحثت عن حجرة يسرا كما وصفتْها لي، وكان الباب مفتوحًا يأتي منه ضوء خافت، وتساءلت لماذا تجلس تقريبًا في ظلام؟ ألقيت نظرة قبل أن أدخل، ولمدة تزيد على نصف دقيقة ظللت أحدق دون حراك.

كان ضوء مصباحٍ صغيرٍ مُضاءً، وتحته على منضدة صغيرة تتوسط الحجرة كان مرطبان صغير يسبح فيه -أو يجلس- جنين كامل، هذا ما رأيته من موضعي، فدخلت الحجرة في ذهول تام، حدقتُ فيه، كان جنينًا أنثى، جَنينة لو جاز هذا، عرفت هذا من العقد الصغير الذي أحاط بعنقها، لكن ما كان مدهشًا ومهيبًا هو نظرة تلك الجنينة، نظرة هادئة باسمة ويداها معقودتان على صدرها كالموناليزا، عيناها الخضراوان تبرقان كالزمرد في ضوء المصباح، وتنظر لي، أو هكذا تخيّلتُ.

كانت جميلةً جدًا، طفلةً جدًا، فيها تلميح عابث كمزاح الأطفال، وفوق غطاء المرطبان البلاستيكي وجدتُ فُتاتًا من البسكويت،

وحول المرطبان أدوات تجميل وتصفيف شعرٍ وعطر، تُـــرى.. مـــا سرك يا يمنى التي رأيتها ولم أرَ يسرا؟ دخلتْ علـــيّ يمنـــى فلـــم أتحرك:

= أهذا هو الموعد الذي اقترحتْه لك؟

نظرت لها كأني أراها لأول مرة، فتابعتْ بصوتٍ متهدّج:

=هذه يسرا التي ماتت كي أولد أنا، كان على الأطباء أن يضـــحّوا بإحدانا، ففضل الطبيب إنقاذ اليمنى.

كدت أسألها عن الكثير، لكني فضّلت الصمت وأنا أستنتج الأكثـــر، هل لعبت أدوار أختها كلها؟ بما فيها كلامها في الهـــاتف؟ أيهمـــا لعبت كل أدوار الأخرى؟ يسرا الطفلة الخالدة المتألقة تحيـــا مـــن خلال يمنى الشابة الحزينة الذابلة، ضمرت التي عاشـــت لتنبعـــث التي لم تولد حية، كان هذا هو انتقامها الخاص جدًا.

غادرتُ البيت الحزين، وحين ركبت التاكسي حرصتُ على ألا يرى السائق ذلك المرطبان الذي سبحت فيه يسرا بهدوء، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة، أبدية، غامضة، كابتسامة الموناليزا.

• • •

اللؤلؤة.. أو ذرَّة رمال من سِجِّيل

بقلم: أشواع بن دارع

ترجمة وتعليق وتقديم: د/ يوسف حمدان

مدير مركز المخطوطات بمكتبة (...)

- مقدمة:

هذا النص كشفٌ جديد فريد يحتل موقعه بجدارة بين أهم الكشوفات في مضماره، فهو نص مذكرات تُرجمان أبرهة الحبشي، الذي تولى الترجمة من وإلى العربية في المحادثة الشهيرة التي دارت بين أبرهة وعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، وكما سنرى فالنص يبدأ بهذه المحادثة ثم يتطرق إلى وصف المعركة ليتحول بعدها في الشكل والمضمون إلى يوميات شخصية غاية في الغرابة، وإن كنا نستطيع الوقوف على تفسيرات علمية ممكنة لها، غير أن أغلبها يبقى بلا تفسير.

أترك القارئ مع ترجمة النص الذي قمت بقسمته طبقًا لقسمة النص الأصلي فصولاً وفقرات، وأكتفي فقط بالتدخل في مساحات الهامش للتعليق والتوضيح، أما الأجزاء التي عجز قلمي عن بيانها فأرجو ألا يبخل عليّ القارئ بتفسير لها، لأنني فعلاً أتوق إلى الفهم!

د/يوسف حمدان

الفصل الأول

المحادثة بين الزعيمين وواقعة الفيل العجيبة

"قد كنتَ أعجبتَني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلّمتَني"
كذا نطقتُ في أسف مترجمًا عبارة أبرهة المعظّم لسيد قريش عبد المطلب بن هاشم، وقد أحرجتْني حدة طبعه أمام لين الزعيم العربي وتواضعه وهيبته، لكنها الحقيقة! إن العربي لا يُطالب سوى بمئتي بعير كانت له سلبها جيش أبرهة، وأما البيت فلم يُبدِ الاهتمام الذي توقعه أبرهة بشأنه، وهو ما أدهش بطلاً كأبرهة كان يتمنى مقارعة بطل يناهزه قوة بدلاً من أن يقتصر دوره على ما يقوم به عامل هدم من رعاياه.

رأيت أن وجه أبرهة الأسود الصخري يزداد سوادًا وجفافًا، ثم يرفع رأسه ويأمر بردِّ القطيع، ثم يُدير رأسه ويأمر بتجهيز الجيش غدًا لهدم الكعبة، وفي صباح اليوم التالي نهضنا على صوت النفير واغتسل الجند واستعدوا، وأعدّوا الأفيال التي أتى بها أبرهة المُعظَّم ليُرهب العرب، وعلى رأسها فيل عظيم شارك في ثلاث حروب ودمَّر أبنية أعظم من الكعبة، ثم توجَّه الجمع إلى مكة.

وهنا حدث شيء عجيب رأيته بأمِّ عينيّ، فقد توقف الفيل، ومنيت كل محاولات دفعه ووخزه بالحراب وضربه بالسياط بالفشل، حتى أن أحد الجند عمد إلى استفزازه بإدخال عصا رفيعة في أذنه، وهو كفيل بإثارة جنونه، لكنه تحمل في صبر حيواني غريب، وإن كنت أقسم أنني رأيت على ملامحه الألم، وجهوه إلى كل الجهات فاتّجه، وإلى مكة فبرك، كانت عيون الجند تتسع، راحوا يتلفتون، وساد الصمت بينهم.

نزل أبرهة عن عرشه وأمر وقد زاد غضبه بالتوجه إلى الكعبة بدون الفيل، فتحرك الجيش، والغريب أن بقية الأفيال الثلاثة عشر التي جئنا بها تململت وعصت قادتها، كأنها تحذو حذو كبيرها، اقتربتُ من أبرهة، وهمست في أذنه:

- أبرهة المعظم.. الأفيال تتمنع والجند خائفون، وقد سرت بينهم الأقاويل عن عقاب السماء...

نهرني مقاطعًا:

= أنا السماء!

وازداد وجهه اكفهرارًا ورجفة، ففهمت أنها معركة بينه ونفسه، قبل أن تكون بينه وقريش.

الفصل الثاني

المعركة

فجأة تصايح الجنود، وأشاروا إلى الأفق، فلما نظرنا وجدنا غيمًا أسودَ كثيفًا كالدخان يفوح ويقترب، وقال أحدهم:

- طيور.

توقف أبرهة ونزل عن عرشه مرة أخرى مُحدقًا في طرف السماء، فتوقف الزحف، وساد صمت رهيب قوامه ستون ألف مقاتل عقد ألسنتهم التوجس، راحت الخيول تصهل وتحمحم بقوة كأنها ابتلعت جمرًا، وراحت تتحرك وتُثير الغبار فنزل أغلب الفرسان عنها، وبعد لحظات كانت الطيور فوقنا، وعرفنا أنها تحمل في مناقيرها وأرجلها قطعًا من النار تنشر كل هذا الدخان، وحين أفلت أول طائر شظية ملتهبة رأينا الرعب الذي لم نتصوره.

كانت الشظايا تسقط على رءوس الجند فتخرج أدمغتهم من رءوسهم، ثم قلوبهم من صدورهم، ثم أمعاؤهم من البطون، فيسقطون أجسامًا خِلْوَة رخوة يتصاعد منها الدخان، بعضهم خرجت عظامهم من جلودهم، البعض خرجت جمجمته حيًا من وجهه، والبعض ذابت دروعه وثيابه وجلوده وخرجت عظام صدره

كما تطفو أضلاع السفن الغارقة في بركة آسنة، والبعض كانت فقراته تنفرط كحبات العقد المنقطع وتتطاير في كل جهة، ملأ الدنيا الدخان والظلام والدم، لم أعد أرى فرحت أعدو دون هدى، تغوص قدماي في أجساد بلا أحشاء، وأحشاء بلا أجساد، وأثناء عدوي الأهوج اخترقت قدمي من أسفل عظمةُ صدرٍ حادة كالمسمار، فلم أهتم وأكملت عدوي حتى غادرت دائرة الدخان، ورأيتُ طائرًا من الطيور يقذف شظيته على أحد الجند، غير أن ذرة دقيقة منها كحبّة رمالٍ انفصلت عنها في الهواء وأصابت رأسي، فأحسست كأن إبرة محمّاة تخترق دماغي، وانتظرت أن تخرج الذرة من رأسي، أو أن يخرج رأسي من وجهي.

لكنّ شيئًا لم يحدث.. احتملت ألم الرأس والقدم، وأنا أرى الطيور تنسحب، والجند يتشتتون على مساحة هائلة، وعرفت أن قادة أبرهة أصدروا أوامرهم بالانسحاب، لأنه لم يعد يقوى على إصدار أمر أو شيء باستثناء أمعائه التي بدأت تتكشف عنها جلدته، في ذلك اليوم الرهيب لملمنا ما استطعنا من المتاع وغادرنا بأقصى سرعة، وكنت في حالة أشبه بالمجنون، لا أكاد أميِّز شيئًا أراه أو أسمعه، المشهد الوحيد الذي ظللت أتخيله مشهد أبرهة الذي يتفسخ ويرى أمعاءه تزحف من بطنه كالثعابين، وأنبأني صداع رأسي أن الجحيم الذي ساقته إلينا الطيور يدَّخر لي مصيرًا أكثر بشاعة مما رأيت، أو تخيلت.

الفصل الثالث

عودتي والرؤيا العجيبة التي زارتني

بعد عودتي إلى أكسوم[1] غبت في غيبوبة طويلة، أفقت بعدها في أسوأ حال، وتوسلتُ إلى امرأتيّ أن تُحضرا لي ساحرًا أو مُعالجًا ليُخرج العظمة من قدمي، فجاء أحدهم بعد طول توسل، وحاول كسر العظمة أو نزعها، لكنني كنت أصرخ من الألم، وبعد أيام أخبرني المعالج أن العظمة لسبب ما صارت جزءًا من عظام قدمي وأن نزعها مستحيل، وقد بدأ اللحم والجلد ينموان عليها، فصار مشهد قدمي كرأس وحيد القرن الذي رأيته في الغابة.

وخطر لي خاطر غريب: أن العظمة التي اخترقت قدمي قد أعاقت بشكل ما الشظية الدقيقة عن أداء أثرها الجهنمي، لهذا لم أمت كمن مات، لا أعرف كيف، ولكن من ينتظر بصدد شظية تسبب إصابتها خروج الدماغ والقلب والكبد أن يفسر أو يعرف شيئًا بوضوح؟!

---

[1] - المملكة التي كان أبرهة حاكمًا على الأراضي العربية التابعة لها، وكان مركزها الحبشة. (المترجم)

مكثتُ على هذه الحال عدة أيام، والصداع لا يسكن في رأسي، وكانت زوجتاي تتشفيان فيّ أو لا تعيرانني أي اهتمام، وفي إحدى الليالي رحتُ في غيبوبة معتادة من قلة النوم والطعام والألم، فرأيت أنني أسير على ضفة النيل، وأن سطح الماء لامع مستقر أراني فيه من رأسي إلى قدمي، لكنني كنتُ داكنًا كالدخان، وكانت عظامي وأحشائي بادية في انعكاسي شفافة بلون السماء، مررت كفي أمام الماء فرأيت فيه عظام كفي كلها شفافة وسط لحم أسوَد، وأصابني الفزع[1].

فلما نظرت إلى رأسي في المياه.. رأيت دماغي راقدًا وسط عظام رأسي الشفافة، وفي مركزه رأيت تلك الحبّة اللامعة، إنها الشظية التي اخترقته ولم تغادره، صحوت وأنا أنادي على زوجتيّ، لكنْ لم يستجب أحد.

[1] يرى صاحب النص هنا مشهدًا شبيهًا بصور أشعة إكس (X)، وإن كنا لا ندري تفسير ذلك. (المترجم)

الفصل الرابع

الرؤى

تتابعت الليالي وقد خفَّ الألم، ومعها تتابعت الــرؤى المشــابهة، لكنني كنتُ ألاحظ ليلةً بعد ليلة الشظية اللامعة القابعة فــي لحــم دماغي وهي تتحوّط بغلاف نصف شفاف لامع.

وبعد ذلك أخذت ألاحظ هذا الغلاف وهو يــزداد ثخانــة ويتــراكم ليصير كرة صغير بحجم عقلة الإصبع، يحيط بالشظية، ويبيت فــي دماغي، فزال أثر الصداع تدريجيًا.

لكنني بدلاً من الصداع بدأتُ أعاني إحساسًا آخــر، كــأن أحــدهم يلمس بإصبعه عيني، إحساسًا بجسم غريب عني، غير أنــه فــي الدماغ.

كنتُ أبكي من الخوف، لكن حين تصحو إحدى زوجتيّ كنت أداري عنها كل ضعف.

الفصل الخامس

اللؤلؤة

صرت في الرؤى أرى حقيقتي، فقد بدأ رأسي يتضخم، مما صار يعني أن الرؤيا حقيقية، وأن البلورة التي تكبر ليلة بعد ليلة في دماغي ليست حلمًا، وذاتَ حلم.. مددت يدي في الماء نحو انعكاس رأسي، ولمست البلورة، فأحسست بيدي الباردة تعبث في دماغي، أحسست بأصابعي تتوغل تحت عظامي وتغوص في مخي اللزج، لكنني احتملت الألم، وأمسكت بالبلورة، فرأيت يدي على صفحة الماء تمسك بلؤلؤة كبيرة بحجم عقلتي إصبع، لم أر أجمل ولا أكبر منها.

أفقت فجأة من الرؤيا لألمح يدًا تنسحب بخفة من رأسي، كانت يد إحدى زوجتيّ وقد رأت أنني صحوت، وخطر لي أنها أوحت لي بهذا الحلم، فقد أحسستُ بيدها وظننتُ في الحلم أنني من يفعل ذلك، أو... نهضتُ وهرعتُ إلى المرآة الفضية، ودققتُ النظر في رأسي وأزحت عنه الشعر، كيف أدخلتْ المرأةُ أصابعها في

رأسي؟! فرأيت رأسي مشقوقًا كثمرة رمان ناضجة، ومـــن الشـــق يخرج بريق، بريق جسم أبيض لامع يغشي ضوئه الأبصار[1].

[1] يطابق النص بشكل ما التفسير العلمي لتكوّن اللؤلؤ، فهو يتكون داخل أجسام الرخويات التي تسكن المحار بسبب دخول جسم غريب إليها، مما يجعل الكائن الرخوي الحساس يقوم بعزل الجسم الغريب عن كيانه بإفراز مادة ما لتجنـــب الألم، تظل تتراكم تلك المادة حتى تصنع لؤلؤة، انظر في ذلك مثلاً:

- George Frederick Kunz, Charles Hugh Stevenson: The Book of the Pearl: Its History, Art, Science and Industry, Dover Publications Inc., USA, 2001, p. 42.

(المترجم)

الفصل السادس

(بلا عنوان)

تتالت الأيام، ورأسي يتضخم، والشق فيه يتسع حتى ليصير رأسي كفلقتي محارة، واللؤلؤة في الرؤيا والحقيقة تزداد حجمًا وتكـويرًا وبريقًا، وفي صباح رهيب.. أحسستُ أثناء نومي بيد تعبث في دماغي، فأفقت فزعًا على إحدى زوجتيّ وهي تغوص بأصابعها في رأسي وتقبض على اللؤلؤة، أحسست بألم شديد، وخوف أشد، حاولت دفعها لكن الأخرى ضربتني في صدري ضربة مهلكة، والأولى تنزع اللؤلؤة، فلما نزعتها أحسست أنني موشك على الموت كأنها نزعت دماغي نفسه، تمددتُ مرتخيًا، ورأيت ضمن ما رأيت قبل أن أضيع في الغيبوبة زوجتي وهي تحمل اللؤلؤة التي صارت بحجم قبضتها أو أكبر، ومنها تتدلى أحبال غريبة دامية كالأحبال السُّرية التي تتدلى من المواليد، كلها تتراقص وكلها تنزف، ولما أفقت من الغيبوبة كانت بقايا الأحبال تتدلى من رأسي الذي بدأ يلتئم، غير أنني صرت مشلولاً وفاقد النطق، لم أعد أتحرك سوى في الرؤى.

الفصل السابع

(بلا عنوان)

كانت الرؤى تتابع في النوم واليقظة، وأصبح بإمكاني أن أرى تلك التفرعات التي تتمدد داخل جسمي من رأسي إلى عنقي إلى صدري وبطني وحوضي، وفي أغلب الفروع كنت أرى لآلئ جديدة كالثمار الصغيرة، في القلب، في الصدر، في أمعائي، في حوضي، وكان عمودي الفقري يلمع في ظلام الحلم كحبات عقد من اللؤلؤ، وفي كل فقرة لؤلؤة.

وبدأت أفهم أن اللؤلؤة قد نشرت بذورها بعد نضجها عن طريق الأحبال الـمُخية التي ظننتها أحبالاً سُّرّية، وأن اللؤلؤ انتشر كالمرض، هذه هي اللعنة التي فررتُ من المعركة وأنا أحملها في مخي، ليتني متُّ ميتة أبرهة.

الفصل الثامن

المزرعة

لم تكن أي من زوجتيّ على علم بالرؤى، لكنها كانتا تصيران على علم باللآلئ في أمعائي حين تكبر وأصرخ من ألمها، عندئذٍ تقـــوم إحداهما بسقياي خمرًا، بينما تحضر الأخرى ســكينًا وتســتخلص اللؤلؤة، وكانت إحداهما إذا احتاجت مالاً تُحدِّث الأخرى برغبتهـــا في استخلاص لؤلؤة منّي، فتعترض الثانية بأن اللؤلؤ لم ينضـــج بعد، لا زال طريًّا أو صغيرًا، فتقنعها الأولـــى بحاجتهـــا، فتشـــقان جزءًا من بطني حيث تستشعران جسمًا صلبًا وتخرجان ما تبغيان.

حاولت لعدة أيام أن أعصيهما فلا أبتلع ما تدسان في فمـــي مـــن الطعام وما تسكبان من الشراب، وأنا عليمٌ أنني لو مـــت فســـوف تخسران ما تجنيان من حياتي وألمـــي، والمـــوت عنـــدي أفضـــل الأحوال، لكنهما شقتا أمعائي وصارتا تصبان فيها الخمر والسوائل مباشرة كي أعيش رغمًا عني، ورغم أن أمعائي لو نفدت لآلئهـــا فسوف تضطران إلى شق عظام ظهري أو حتى قلبي لتحصيل أخر اللآلئ.

الفصل التاسع

أخر اللآلئ

حدث ما كنت أخشاه، فقد نفدت لآلئ أمعائي، وطيلة أسابيع لم أمنح المرأتين الشرهتين شيئًا، تشاورتا أكثر من مرة في أمر قتلي وإخراج بقية الكنز، تناقشتا أمامي كأنهما ستذبحان حيوانًا، لكني فهمت أنهما تخشيان انكشاف الجريمة، وأثناء ترددهما سقطت إحداهما أرضًا متألمة من بطنها وهي حبلى، كانت قد حبلت مني بعد عودتي بأسابيع من الحملة الخاسرة، وهي ملاحظة هامة، لأنها وضعت لؤلؤة.

لؤلؤة أكبر من أية واحدة سابقة، وإنْ لم تكن منتظمة في شكلها، وخطر لي أن جسد المرأة لا يكوِّن اللآلئ بالانتظام الذي يحدث في جسد الرجل، لكنها لؤلؤة تساوي أكثر مما في جسدي كله من اللؤلؤ، وبدأتا تعرفان ما لديهما من ثروة ممكنة تفوق ما حصّلتاه مني فعلاً بأضعاف، أرغمتني الثانية على مضاجعتها، وبعد شهرين أرغمتني الأولى لتحبل بلؤلؤة ثانية، لكني كنت أتوقع لهما مصيرًا مرتبطًا بمصيري.

كانت الرؤى لا تتركني، وكنت أرى جسد كلٍ منهما مكشـوفًا مـن داخله في صفحة النهر، واللآلئ تتفرع فيه وتتنقل بذورها إلى كافة الأعضاء، إلى اليوم الذي تنضج فيه، بعد شـهور صـارت التـي وضعتْ ممددة إلى جانبي، وقد نزعتْ التي لم تضع لؤلؤة دماغِهـا ولآلئَ أمعائها، وبعد شهور وضعت حملها بدورها وتمددت جوارنا من الألم.

لم نصرخ.

لو عرف الناس لما رحمونا.

حان الوقت لاستقبال موتٍ هادئ.

كانت الرؤى تظهر اللآلئ التي تتضخم في القلوب، موشكةً على أن تلدها الصدورُ.

لكنني كنتُ سعيدًا.

وربِّ الكعبة كنت سعيدًا!

• • •

تْشِرْنُبْروف

طوال الطريق ظل صديقي يُحدثني عن الآثار السيئة التي تركتهـا الشيوعية الروسية على أوكرانيا، عن العلامات الداكنة المحترقـة التي تركتها أصابع الاتحاد السوفييتي على بلده حين زرعوا ذلـك المفاعل النووي بالقوة ثم تسبب الإهمال الفني في حدوث الكارثـة المعروفة.

كنتُ أرتجف، ليس من البرد والحرارة تقترب من الصفر، بل مـن الرهبة وأنا أقترب من قلب هذه الكارثة للمرة الأولى إلى هذا الحدّ، قلبها الذي لم يمت بعد، والذي ربما يظل حيًا لمئات السنين رغـم التابوت الرأسي الذي أحاطوه به ليدفنوه واقفًا، مومياء إشـعاع ملعونة مُكفَّنة في الخرسانة والمواد العازلة، وما تزال حية.

قرأتُ عنها كثيرًا، عرفت التفاصيل المخيفة لظهور هـذا الـوحش الإشعاعي وهو يرفع رأسه من بحر المادة ببطء ذات ليلة مظلمة، ويفرّ من سجنه الذي انفتح بغتة، كيف اضـطرب الجـو وظلـت السماء تبرق وترعد بشكل مريب، السماء الغاضبة مـن البشـر،

وعليهم، التي تتجلى على شاشتها المغيمة أوضح أشكال اللعنة وأكثرها تجريدًا، ثم الكلام عن الفنيين الذين كان جلدهم ينضج ويتقشر عليهم وهم أحياء لا يشعرون بشيء، ثم مشهد أحد العلماء في الهليوكوبتر وهو يراقب ما وصل إليه حال المفاعل بعد انفجاره، حين عرفوا للمرة الأولى أن القلب النووي الحيّ الملتهب صار بلا سقف، بلا سقف، وشعاع من الضوء كثيف خارق يشقّ السماء إلى ما لا نهاية، اكتفى العالِم بذلك المشهد وأهاب بالطيار أن يرجع، لو اقتربنا أكثر لأصابنا العمى، ولو اخترقنا شعاع الضوء لاحترقنا مع الطائرة.

التعليمات الحكومية تتناثر بعد ذلك في كل مكان، اتركوا الأحذية خارج البيوت، غيروا ملابسكم بعد العودة من الخارج، ابقوا في بيوتكم قدر الإمكان وأغلقوا النوافذ والأبواب، غطوا الأطعمة، ولا تأكلوا الأسماك أو الخضروات أو الفاكهة، ثم المشهد المحزن الذي قرأت عنه وتخيلته عن طوابير تهجير الأطفال في سن معينة من بيوتهم وأهليهم، أولئك الذين كانوا الضحية السهلة المحتمَلة للوحش، وارتفاع نسبة الإجهاض المتعمد خوفًا من تشوه الأجنة، وارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان، والتكتم الإعلامي الرهيب.

كنت في طفولتي أحب أفلام الديناصورات والأساطير، أثّر فيّ بشكل خاص مشهد وحش الكراكن وهو يخرج من الماء في فيلم صدام

الطيطان Clash of Titans بأذرعه الأربعة، وحين كبرت صـــدقت أنه لا يوجد وحش، حتى قرأت عن هذه الكارثة، هذه المرة هنـــاك وحش حقيقي بألف ذراع، وحش غادر عالم الخرافات في واقعيـــة فجّة ليحرق خلايا البشر ويهدد العالم وهو واقف في مكانه.

كان صديقي يؤكد أن الإهمال الإداري هو المسئول عـــن انفجـــار المفاعل، أما أنا فكنت أثق أن الإهمال الإداري هـــو الســـبب فـــي انفجار المفاعل الأيديولوجي كله في الاتحاد الســـوفييتي، وكنـــت أؤمن معه أن كارثة التسرب الإشعاعي لا تقل سوءًا مـــن ناحيـــة المبدأ عن كارثة هيروشيما وناجازاكي، لأن الإهمـــال قـــد يكـــون أخطر من الشرّ، إلا أنه قال في همس:

-أنت لا تدري شيئًا، لا تدري أنه شر من نوع جديد، شـــر غيـــر مسبوق.

كان هذا الصديق يعمل في أحـــد المراكـــز البحثيـــة فـــي العهـــد السوفييتي البائد، وقد حكى لي مرارًا من قبل عـــن مـــدى تقـــدم الأبحاث السرية في الاتحاد السوفييتي، وكيف أن كثيرًا منهـــا مـــا يزال سريًا حتى اليوم، وأعترف أنني شعرت ببعض المبالغة حـــين أكّد لي أن حربًا باردة أخرى ما تزال حية إلى اليوم بـــين الغـــرب وروسيا من أجل سرقة هذه الأسرار، المهم أنني تعودت منه هـــذه النغمة.

لكن شيئًا ما في لهجته هذه المرة أثار قلقي، رجفة ما في صوته، أو اتساع خوفٍ في مقلتيه، انطباع عام عليه من الخوف والتشاؤم واليأس، هذا وحده كان كفيلاً بأن أمنحه أذنيّ حين جلسنا في الكافيتريا الصغيرة التي تعودناها وتعودتنا في إحدى الضواحي المتطرفة في كييف، بالقرب من تشرنوبل الواقعة في شمالها، بدأ يتكلم، وهو ينظر بين الحين والآخر إلى الشمال...

• • •

تْشِرْنُبْروف Chernobrov..

جُسَيم تشرنبروف.. على اسم مكتشفه العالم السوفييتي الراحل نيكولاي تشرنبروف، حين سمعت عن هذا الشيء للمرة الأولى لم أصدق، كنت صغير السن ساذجًا، وظننت أنه لم يعد هناك المزيد من الأسرار تحت - الذريّة، لكن الحقيقة أن العلماء وجدوا عالَمًا غير محدود تحت الذرّة، لدرجة أن قال أوبنهايمر في إحدى المناسبات: إن جائزة نوبل لهذا العام ستُمنح للعالِم الذي لن يكتشف جسيمًا جديدًا في الذرّة[1].

ويبدو أنني كنت أستحق هذه الجائزة بالذات! كنت أعمل في وسط علمي نشط يتقدم كل يوم، وكثير من الجسيمات التي عرفها الغرب

---

[1] - مقولة حقيقية تنسب لأوبنهايمر.

بأسماء غربية عرفها السوفييت قبلهم بأسماء تنتهـي بـ ov أو vsky أو itch، وكنا نطلق عليها مزاحًا الذرّة الحمـراء مقابـل الذرة البيضاء، الكتلة الذرية الشرقية، وغيرها، والواقع أننا كنـا ننظر لعلماء الغرب نظرتنا إلى الأطفال الـذين يلهـون بالألعـاب النارية في الشوارع، في حين كانت سياستنا هي التكتم، لدرجة أن بعضنا كان لا يعرف أحيانًا طبيعة أبحاث البعض الآخر، وربمـا لا يعرف هَويَّاتِهم الحقيقية.

آه من تلك الذكريات التي كانت عزيزة! وفي قاعـة المحاضـرات الصغيرة العتيقة بدأتُ أرى هذا الشاب في أوائل العشرينات، فاتح البشرة والشعر والعينين، دائم البسمة والوداعة، يـوحي مظهـره دائمًا كأنه في قصة حب ناجحة مع فتاة خارجة من عوالم جي دي موباسان وألفرد دي موسِي، يجلس في صـمته الباسـم الهـادئ ويدون قليلاً جدًا من الملاحظات، وقد تعلمت أن تدوين ملاحظـات بعينها يلفت انتباه المحاضِرين، بالفعل كـان أغلـب المحاضِـرين يلتفتون إليه.

كان من الطبيعي أن يتفوق وأن يثير حسدنا، العالِم الشاب العبقري القادم من لينـنجراد ليؤلب علينا أساتذتنا، والذي لم يكن اجتماعيًـا إلا مع البروتونات والإلكترونات وجسيماته التي يربيها في الـذرّة كالطيور الأليفة الملونة الراقصة.

تشرنبروف..

كنت أقترب منه برغم حقدي عليه، كنت أحاول هزيمتـــه أخلاقيًــا على الأقل، وكان الفتى كالنبع الهادئ لا يعطيك إلا ما تغترف منه، كما أنه لا يبخل عليك، وعرفت أنه شيوعي مــتحمس يثــق فــي الحزب ثقته في الرب، كما كان يمقت الغرب مقتًا متصــلاً هادئًــا قانيًا كتيار الدم، وكان يكشف في كل جلسة عن ملمح جديــد مــن قراءاته في تاريخ الغرب وآرائه في دور الدولة الماركسية، كــان يكشف كل مرة عن أغوار جديدة فيه وعن أغوار أخرى محتمَلة لم أسبرها بعد.

كنا نتناقش بالأيام في القضايا السياسية، كنت أحاول إقناعه بمــا يكفي للإطاحة بي من مركز البحوث ووظيفة الجامعــة المتوقَعــة على الأقل، لم أكن مؤدلجًا وكنت أرى أن الحزب يستغل الماركسية كخلفية دعائية وراء صور زعمائه الحقيقيــين، وأن مــا أنجــزه الاتحاد السوفييتي من تفوق تكنولوجي لا يكفي للتقدم مع ضــياع الحرية، لا يمكن تحديث بلد مع تخلف شعبه، بل واعتمادًا على هذا التخلف بالذات، لهذا انهارت وستنهار أي نظم تحديثية أخرى تهتم بتحديث المظهر بدءًا من البناء بالخرسانة حتى بنــاء الصــواريخ دون بناء الفرد، لكنه كان قاطعًا متحفظًا.. وغامضًا.

متى بدأت ألاحظ التغير الذي طرأ عليه؟ بعد عام ونصف تقريبًا كما أظن، صار في البداية شديد الانشــغال، كثيــر اللقــاءات بأنــاس

غوامض، ورجَّحنا كونهم من الكي جي بي أو غيرها من الهيئات الأمنية العُليا، كان كثير من الأسرار يتسرب في هذا الوسط، لكن أسراره بدأت تقل في الطفو، حتى صار قاعًا بلا سطح.

ثم بدأت أرى الصليب للمرة الأولى، حول رقبته، على الصفحات الأولى من كتبه، في الإشارات الرمزية على صدره، تشرنبروف، الوحيد الذي كان يرسم الصليب في المركز، وأسميناه ساخرين: المسيح!

كان يغضب، يغضب ويكتئب، يغضب ويكتئب، ثم يكتئب ويكتئب، صار اكتئابه نهرًا من السواد المتصل المنسكب في هدوء شديد كالحِبر، نهرًا لا يتحرك على سطحه سوى راحتيه المرتجفتين حين يمسك بفنجان القهوة أو يلملم كتبه في حقيبته، وصرت أتقرب له بدافع الفضول هذه المرة.

ما زلت في حيرة حتى هذه اللحظة حين أتساءل لماذا صرَّح لي بالذات، هل كنت صديقه الوحيد حقًا؟ ولماذا صرَّح أصلاً؟ هل كان ضميره يؤنبه حقًا؟ "لم أرد الاشتراك في هذا، لماذا ضعفت وعاونتهم؟ ما الذي فعلناه؟" كذلك ردّد في ضياع مأساوي، ثم بدأت أفهم منه بهدوء وأنا أستمع منه لأول مرة عن تلك الأسطورة، جُسيم تشرنبروف الذي قتل تشرنبروف، ألم أقل لك إنه قُتل؟ وأن أحدًا - فيما يُقال - لا يعرف من قتله بينما نحن جميعًا نعرف!

بدأ يروي مكتئبًا ثم تغلبت روح العالِم العبقرية عليه تدريجيًا، فازداد حماسةً وتألقًا وهو يشرح التفاصيل العلمية لاكتشافه الخاصّ، كان يرتجف في حماس ورهبة ولأول مرة أراه على حقيقته خارج بذلته الاجتماعية الواقية البلاستيكية.

لقد اكتشف جسيمًا جديدًا بهذه البساطة، لكنه لاحظ ما عليه من مسلك غريب يختلف كل الاختلاف عن بقية الجسيمات تحت الذرية، كان أكثر عشوائية في حركته بل ويثبت في مكانه إلى درجة يمكن معها رصده، ثم يتحرك بسرعاتٍ متفاوتة، كان لا يخضع لأي قانون فيزيائي معروف، ولا غير معروف، ولا غير فيزيائي.

وهنا أعلن تشرنبروف قراره: يُحال البحث إلى قسم الميكروبيولوجي، هذه صفات كائن حيّ، كائن بكتلة وحجم أقرب إلى الإلكترون، يحيا في فراغ الذرة وحول نواتها، ويتنقل بحرية بين مداراتها وجسيماتها، كان الكشف في البداية مثيرًا، ثم صار مخيفًا، ثم هبط على وجه تشرنبروف الستار، وانطفأت الأضواء، جلس أخيرًا في إنهاك وقال في يأس:

= هذا الكائن ليس كائنًا بسيطًا أو تافهًا برغم أنه أصغر كائن حي معروف، إن تحريره من الذرة في التفاعل النووي لن يقل عن شروق نجم مفاجئ على الأرض، هذا الكائن نجم حي، نجم تحت ذرّي يكتسب طاقته وكتلته كاملة في عالمنا الكبير، نجم دقيق كان يسبح في الذرة مسجونًا، لكنهم يحاولون تحريره الآن في محطة

نووية يزعمون أنها محطة كهروذرية لتوليد الكهرباء في أوكرانيا.

ونظر إلى الغرب هامسًا في شرود:

= في تشرنوبل.

وبعد هذا اللقاء لم يسمع أحد عن تشرنبروف، ولا عن نجم تشرنبروف.

• • •

- نجم؟؟!

قال صديقي:

- كائن حي غير محدد الطبيعة بطاقة نجم صغير، كائن بدأ السوفييت تحريره على أطراف الاتحاد السوفييتي الغربية ليكون في مواجهة الغرب ضد أي خطر محتمل، ولم تكن كارثة تشرنوبل في ٨٦ إلا بداية ظهور هذا الوحش، بداية بلا نهاية.

مال عليّ بملامحه الشاحبة وعينيه الفاتحتين وهمس في وحشية:

- لا توجد طريقة معروفة لإيقاف انبعاث الكائن الذي بدأ فعلاً، سيأخذ انبعاثه عشرات السنين لكنه يظهر في البداية كما ظهر، كانفجار وتسرب إشعاعي، لقد حاول السوفييت الحمقى - بعد أن رأوا شره المستطير - قتله بالمازوت المتجمد ودفنه بأطنان الخرسانة والرمال التي ابتلعها في ثانية ثم تجشأ يطلب المزيد، أنا

كنت هناك ورأيته يطير السقف كغطاء زجاجة المياه الغازية، ثــم يصعد نارًا سوداء قاتمة، يشقّ الليل إلى عَنان السماء ثــم يرجــع إلى عرينه، يلقي نظرة على العالم الخارجي الــذي يــراه للمــرة الأولى ثم يعود إلى سباته المؤقت، كان له صوت أنين عميق يهــز الأرض، كأنه يتوعد المقتــربين، لقــد أصــاب بــالعمى والعقــم والسرطان والتشوّه كل من اقترب منــه مــن الفنيــين والعلمــاء والعسكريين، وتعاونوا عليه كرجل واحد من أجل دفنه في التابوت الرأسي، التابوت الذي يتشقق ويذوب تدريجيًا فيروحون يصــبون عليه المزيد من الخرسانة ويبتكرون المركبات الجديدة لحصاره كل عام، لكنه يومًا سيصحو مكتمل النموّ مــن شــرنقته الخرســانية ويلتهم كل هذه الحواجز التافهة، سيدوس على أوروبا بقدم وعلى روسيا بقدم ثم يتدحرج على بقية العالم، وسيبقى إلــى أن تمــوت النجوم ساكن الأرض الوحيد، الكائن الدقيق الأصغر من الفيــروس ومن الذرة، الذي اكتسب قوة غير مسبوقة في عالمنا وصار إلهًــا شريرًا كآلهة الأقوام الوثنية، إنه شقي وشرير ولا حدود لرغبتــه في اللهو، إنه ابني وأنا أعرفه، سيصير أخر من نبصره قبــل أن نفنى، وأول ما سأراه أنــا حــين أُبعــث، فلترحمنــي أيهــا الأب السماوي، إنني أحبك وأنت لن تعذّب أحدًا يحبّ.

همست بلا وعي مني:

- بروفيسور.. بروفيسور تشرنبروف؟؟!

= أنا؟! أنا لست تشرنبروف، أنت تشرنبروف!

- بل هو أنت يا بروفيسور، أنت الــذي اكتشــفتَه، وأنــت الــذي أخرجت إلى العالم هذا الوحش، هذا هو إلهك فلا تدع معه أحدًا.

= هذا ليس.. أنا لستُ.. أنا مسيحي، مسيحي، وهذا صليبي، أنــا أومن بالمسيح، أنا المسيح!

- أنت كافر يا تشرنبروف

لن يرحمك الله،

أنت ولد شقي ويجب أن تُضرب بالعصا،

أنسيتَ أنني الوحيد الذي يعرف كيف تفكر وماذا تعتقد؟

ماذا تعتقد يا بروفيسور؟

سألتهمك أولاً،

الكائنات الدقيقة تحت- الذريّة من أمثالنا تتمتع بمنطق براجمــاتي قويم، وأنا لم أعد بحاجةٍ إليــك، ســآتي الأرضَ زلزلــةً كبــرى، ستعرفها حين تشهدها، لن تنفعك كل تلك الصلبان التــي ترتــديها وترتديك، لن تنفعك يا تشرنبروف.

= أنا لست تشرنبروف.. لست تشرنبروف.

• • •

بئر لمْلَم

الخريف الحار المترب الذي هو أقرب إلى ربيع الخماسين، لم يعد بإمكانك التمييز بين الفصول في مصر، مجرد صيف طويــل حــار جاف يشقّه فصل بردٍ قصيرٍ قاس، لقد جُنَّت الطبيعة في مصر كما جنّ كل شيء فيها، في الفصل الوحيد الطويل القاسي مــن الفقــر والقهر الذي يشقه فصل قصير قــاسٍ مــن اللامبــالاة والقناعــة بالواقع.

فكرت في هذا وأنا أشهق من الحرارة حاسدًا صديقي على معطفــه الأبيض ولائمًا نفسي على قميصي الداكن، ونحــن نــدخل بوابــة المستشفى ونقطع حديقته، ونرمق المرضى العقليين المتناثرين في أرجائها التي عريت أشجارها من الأوراق، حتى بدا لــي مشــهد الفروع العارية الذي أتشاءم منه كأنما الشجر قد جن هــو الآخــر فراح يمزّق ثيابه ويطوحها مع الريح الساخنة.

لفَتَ نظري مشهدها، لم يلفت نظر صديقي الذي أظنه يعرف معظم هؤلاء، كانت تنحني بقامتها النحيلة جدًا ذات الســنوات الســتين تقريبًا وتحفر في الأرض، كان شعرها الأبيض تمامًا يُغطي كتفيهــا

ويتدلى مع انحنائها في البئر، بئر صغيرة بقطر وسـطها واضـح أنها قليلة العمق، حيث كانت تدخل ذراعها إلى منتصـفها لتزيـد عمقها، وتجمع قلب الحفرة المتراكم في أكوام منظّمة جوارها.

لاحظ صديقي اهتمامي فتوقف بنا، صمت قليلاً، ثم قال:
- الحاجة (هاجر)، نزيلة عندنا منذ عشر سنوات، وتحفـر بئـرًا جديدة كل ثلاثة أو أربعة أيام، فشلنا في إثنائها عـن ذلـك وقـد نصحنا أحد الأساتذة بأن نتركها تفرغ طاقتها في هذا النشاط، على كل حال نحن نردم ما تنتهي من حفره بمجرد أن تنتقل إلى موضع آخر.
= ولا يعلم أحد لماذا تفعل هذا؟
- بل نعلم، إن لها قصةً غريبة كما تتوقع.

تركناها منهمكة متسخة زائغة البصر، واتجهنا نحو مدخل المبنى، ألقيت نظرة أخيرة عليها ففاجأتني نظرتها المباشرة الثابتة علـيّ من بعيد، كأنها تعرفني أو تعرف أننا نتكلم عنها بـرغم أن هـذا مستحيل، فما أن دخلنا البناية حتى قال صديقي شاردًا:
- وهي قصة مخيفة أيضًا.
وتحاشى النظر إليّ.

لا أذكر فيمَ تحدث ونحن نتجه إلى حجرة مكتبه أو وهو يطلب لـي شايًا، كان يتحدث في أكثر من موضـوع، وبـدا لـي أن يحـاول

تشتيتي، الأمر الذي زاد فضولي، فصمتَ وشرد من جديد، وفهمت القدْر الذي تحدثه هذه القصة فيه من التشاؤم والسوداوية، انتظرَ الساعي حتى غادرنا، ثم راح يروي..

• • •

كنت طبيبًا حديث التخرج في ذلك الوقت ولم أكن قد تخصصت بعد، وعرفت هذه القصة من قرب، جاءتنا هذه السيدة في البداية محتفظة بعقلها، منهارة نعم، مجنونة لا، لأنك غير متخصص فسوف أتجاوز كثيرًا من التفاصيل العلمية وأقفز على لحم الحكاية، لقد جاءتنا بولدها الوحيد الذي أنجبته على كبر نسبيًا وهو في سن السابعة عشر، وهي لا تعرف حقيقة ما به، ولا نحن كنا عرفنا بعد، مجرد حالة تصلب عامة مدهشة، إن ذراعيه وأصابعه كانت أكثر صلابة من خشب هذا المكتب الذي نجلس حوله، كان في شبه غيبوبة وواضح أنه سيموت، وكنا سنموت نحن أيضًا بجهلنا لو لا زيارة الطبيب الإنجليزي، طبيب وعالم شهير من بناة إمبراطورية الطب، شاهد الحالة وفحصها باهتمام علمي حقيقي، ثم بدأ يمارس مهمته المقدسة في إبهارنا بالتشخيص، هذه حالة من سرطان الزجاج.

بما أنك غير متخصص فلن تشعر بتلك القشعريرة التي سرت في جسمي كسرطان من الرهبة، إن من علائم تأثري بالأدب نظرتي

إلى الأمراض باعتبارها شخوصًا متفاوتة في العبقرية والشر، وقد بدا لي هذا الاسم بالذات شريرًا إلى درجة الفتك.

بدأ العالم يشرح لنا، إن سرطان الزجاج لا يربطه بالسرطان التقليدي سوى تشابه الأسماء، إذ إنه ليس حالة انقسام غير طبيعية للخلايا مع اختلال التوازن الطبيعي بين معدلَي الموت والحياة الخلويين، هذا قاتل عبقري آخر لا يقل عبقرية عن السرطان المعروف وإن كان أكثر ندرة وتفردًا.

يحدث سرطان الزجاج بعد تعرض الجسم لصدمة قوية مفاجئة تصيب مساحة كبيرة منه، كما في حادث سيارة أو سقوط من علٍ، مما يجعل الجسم - ولأسباب غير معروفة حتى الآن - يتزجّج.

عملية التزجيج Vitrification هي تصلب عامّ هائل يصيب الجسم بأجمعه تدريجيًا، ويبدأ في الأطراف وصولاً إلى الأعضاء الداخلية، حالة شاملة من تجمد السوائل الخلوية والأنسجة كأنها بالفعل تعرضت لتجميد شديد مفاجئ، وهي ظاهرة تحدث فعلاً للأجسام الحية في عملية التجميد، وهنا تصير قابلة للكسر.

المرض لا يكتمل إلا مع انتشار الشقوق وتناسلها على السطوح والأعماق بشكل متسارع رهيب، ومن ثم ينهار الجسد دفعة واحدة وهو في موضعه، تمامًا كسرطان الزجاج.

أنت غير متخصص ولهذا لا تعرف أن أحدًا لم ينج من سرطان الزجاج، أكد العالم الإنجليزي أن كل ما بوسعنا لا يتجاوز إعطاءه المسكنات القوية، وبعد أيام لن يكون بوسعنا شيء، لقد شاهدتْ السيدة ولدها وهو يتشقق حرفيًا وينهار بين يديها في ليلة واحدة، ويا له من مشهد حاولنا ألا تراه دون جدوى! وفي قمة انهيارها هدأت السيدة وراحت تكلم نفسها..

"كنت أعرف أنه يتبدّل"

كذا همستْ بعينين متسعتين بدأت تطفو عليهما شوائب الجنون، نصحتْه مرارًا بالرجوع، بالعودة إلى خالقه، بالكف عن كلامه عن المقدسات بهذا الاستهتار وبالعودة إلى الصلاة، إلا أن ولدها كان يملك قدرًا نادرًا من الأصالة الذاتية فيما يبدو، قالت إنه عصاها، عاملها بلطفٍ وبقي على ما هو عليه.

فسَّرت الأم كل ما حدث له على هذا الظلّ، ففي إحدى الليالي استيقظت وزوجها على صوت دويٍّ كالرعد، قالت إنه كان أشبه برعد مشروخ، رعد مهشَّم غريب، وأن الصوت كان يأتي من غرفة ولدها بالذات.

دخلا غرفته في فزع، ورأيا المشهد الرهيب، فجوة مظلمة كبيرة في السقف الذي تهاوى ذلك الجزء منه على الجسد النائم على ظهره، ومنها بدت الغيوم تتحرك في سرعة مدهشة ومخيفة، بدأ

ينهض في صعوبة متألمًا متأوهًا من المفاجأة أكثــر مــن الألــم، فراحت تتحسس بكفيها جسمه كأنها تتأكد أن كل شيء فيــه كمــا هو، كما خرج من رحمها، وقضت بقية الليل تساعد ابنهــا علــى تغيير ملابسه والاغتسال وتضميد جروحه وتهدئة رجفتــه التــي كانت تأكل في قلبها، راحت تردد دامعة كأنها تخاطب ولدها أمامنا:

- ألم أقل لك ارجع؟ ألم أقل لك؟

ثم أمسكت بتلابيبي أنا بالذات وهمست في جنونها الذي بــدأ بــلا نهاية:

- لقد أصابته اللعنة يا دكتور، لقد انهدمتْ عليه السماء، الطب لا يداوي اللعنات، لا شيء يداويها.

أنت غير متخصص، ولهذا لن تفهم إلى أي حد كانت صادقة.

• • •

قلت له بصوتٍ مبحوح:

= ولكن لماذا تحفر في الحديقة؟

تنهد في عمق ثم قال في إشفاق:

- بعد أن انهار جسد ابنها منهيًا آلامه التي لم يتمكن حتــى مــن التعبير عنها أصرتْ على جمعه، نعم، لــن يمكننــا فهــم منطــق تفكيرها في تلك المرحلة، لقد بدا لها أن سيعود إلــى الحيــاة لــو لملمته ثانيةً، أو شيء من هذا القبيل.

= ما زلت لا أفهم.

- صبرًا، لم يكن زوجها قد جن هو الآخر بعد، لذا منعها بقوله إنه دفن الحطام البشري في مكان مجهول غير مقابر الأسـرة، وأنـه ليس بوسعها لذلك فعل شـيء، ثـم أدخلهـا هـذا المستشـفى، المستشفى نفسه الذي كانت تعالج ابنها فيه، ومن لحظتها وهـي تحفر في أي مكان مستخرجةً كِسرات الزجاج الدفينة، وتجمعها في أكوام صغيرة، انظر معي.

ونظرتُ من النافذة المنخفضة المطلة على الحديقة، فرأيت السيدة العجوز النحيلة ثلجية الشعر، تجلس القرفصاء أمام ركامها وتقول في إلحاح بصوتٍ رقيق مرتجف، كأنها تحدث قطع الزجاج:

- لِمِّي.. لِمِّي.. لِمِّي.. لِمِّي!

فبهتُّ قليلاً، ثم بدأتْ تتسلق ظهري وكتفي تلك القشـعريرة التـي وصفها صديقي منذ دقائق، ووجدت نفسي أقـول فـي مأسـاوية ساخرة:

= بئر لَمْلَم!

ابتسم صديقي متغلبًا على اكتئابه، فسألتُه:

= وزوجها المجنون؟

- دخل المستشفى بعدها بشهور.

- وهل هو الآخر مشغول ببئر لملم؟

- بل بلغز سِمْسِم.

= سمسم؟!

- تعال معي.

جذبني لنخرج من الحجرة ونصعد إلى الطابق الأعلى حيث عنبر الذكور، وفي قاعة واسعة تناثر فيها المرضى بين هادئ ومضطرب رأيت ذلك العجوز الجالس منحنيًا أمام منضدة صغيرة وأمامه بعض الأوراق.

قال صديقي همسًا:

- سمسم هو اسم التدليل الذي كان يطلقونه على ابنه.

وأمام الرجل رأيت صورة مرسومة بيد لا تنقصها الموهبة، صورة لوجهٍ شاب بمنظار طبيّ يبتسم في حزنٍ لا شكّ فيه، كانت الصورة ممزقة ويبدو أن العجوز جمعها ثانيةً،لاحظت هذا وصديقي يهمس:

- إنه يرسم ابنه ثم يمزق الصورة، ثم يعيد تجميعها كألعاب الصغار.

وكان العجوز يقول باكيًا:

- إسماعيل، سمسم، حبيبي، لماذا لا ترجع؟ لقد طالت غيبتك يا (وِلْدِي)، طالت.

وسقطتْ دمعة على وجه الشاب، فبدت لي الصورة التي ذاب حبرها مع القطرات كأنها تبكي، وكأن بكاءها يذيبها فلا ترجع أبدًا.

• • •

Y- الرجال

حدَّثتْني نفسي أنهم لن يجدوا شيئًا، أنّ رسم المخ وأشـــعة المـــخ المقطعية تحصيل حاصل، أنّ علاجًا لن يشفي أبدًا حالة عايشـــتها منذ ثلاثين سنة، منذ الطفولة، رؤيا، لكنها ليست كابوسًا، لأنني أعرف أنها ستأتي، كمرضى الصرع الذين يشعرون بدنوّ النوبـــة، أنا أيضًا أشعر باقتراب هذه الرؤيا حين أغمض عينـــي، وأحـــاول تخيل أي مشهد فلا أرى سطحًا إلا وهو مجعد بشدة، بشكل وحشي كأنما تملؤه الأشواك، ولا أرى أحدًا إلا وهو نحيف جدًا كالخيط، أو بدين جدًا كالبالون، ثم أشعر بذلك الثقل في أطرافي كـــأنني أحمـــل الأرض، فإذا نِمْتُ حلمت بذلك الكابوس الذي ليس بالضبط كابوسًا، ليس مشهدًا، بل شعورًا، شعور بمعاناة كيان عملاق رهيـــب بـــلا شكل ولا صفة، مجرد شعور بفارق الحجم والكتلة والقوة، شـــعور مجرد يملؤني خوفًا فأصحو وأنا أتحاشاه بأن أشغل نفســـي بـــأي شيء، أغني بصوت عالٍ في جنون، أروح وأجيء فـــي الشـــقة، أخرج إلى الشارع، إنه أيضًا ليس مجرد كابوس لأنه ينتابني كثيرًا في اليقظة، ذات الشعور المجرد الكئيب بالضـــياع التـــام وفقـــدان

الذات والضآلة والرعب، المشكلة الأكبر هي أنني لم أتمكن قط من شرح هذه الرؤيا لأحد، ولم أقرأ أو أسمع عما يشابهها، كنت في طفولتي أصحو منها وأدور في الغرفة في بكاءٍ مرير، وكان أبي يسألني عما بي فلا أقدر على الشرح، أتمنى فقط ألا أموت قبل أن أفهم.

• • •

تأكدت من الوقت المتبقي بنظرة خاطفة إلى ساعتي، ثم قلبت الورقة قائلاً:

- كذا نجد في ختام هذه الورقة أيها الأساتذة الأعزاء أن كثيرًا من الحالات التي تم تشخيصها باعتبارها سرطان التراتوما[1] ليست كذلك، وإنما هي نواتج طفرات طبيعية سريعة في الـ **DNA** البشري، وفي جلسة الغد قد نتعرض بتفصيلٍ أكبر لحالات محددة، أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم.

صفّقتِ القاعة، واستمعتُ إلى استهجانات كثيرة بكل اللغات، واستحسانات قليلة بالإنجليزية، إن التعصب سمة أساسية في

---

[1] - سرطان التراتوما **Teratoma** من اليونانية بمعنى الورم الوَحْش "**monstrous tumor**"، وهو سرطان يصيب الخلايا الجرثومية **germ cells** ويُنتج أنسجة من أعضاء مختلفة في العضو الواحد المصاب، مثل الشعر والأسنان والعظم وغيرها.

الغربيين، ولن يقبلوا بسهولة إبداعًا أجنبيًا، عمومًا لقد اقتربتْ نهاية كل هذا، وهو ما سيخفف من حزن الجميع.

• • •

كان الوقت شارف على الانتهاء، مع ذلك لست قلقًا لأن أحد ضيوف المنصة اعتذر، مما يمنحني فرصة أكبر لاستعراض المزيد من الحالات: نصل الآن إلى أهم مجموعة من الحالات التي بدأنا استعراضها في هذه الجلسة:

١ - المسخ الأول: ذو الرأسين:

المريض الذي يعاني من نمو رأسٍ صغير مكتمل التكوين تقريبًا في مخه، رأس بشري طبيعي تمامًا، وهو لم ينمُ بالطبع من خلية جرثومية Germ Cell كالتراتوما، بل من خلية عادية، ورغم أن خطورة هذا الرأس لن تختلف نظريًا عن خطورة الورم، إلا أن جسد المريض يتقبل بالفعل هذا الرأس تدريجيًا، وعما قريب سيصبح ذو الرأسين اسمًا على مسمّى.

٢ - المسخ الثاني: القنفذ:

وهي حالة أوضح، وكما هو واضح من اسمها، فهذا المريض يعاني من نمو الأشواك بتوزيع يشبه نظيره في القنفذ، وقد أثبتت الفحوصات أنها ليست فقط أشواكًا (تشبه) أشواك القنفذ، بل هي أشواك القنفذ فعلاً.

٣ - المسخ الثالث: الذئب:

أنتم تعرفون الأسطورة، أنا لا أتحدث عن أسطورة، هذه حالة أعم يتحول فيها المريض إلى ذئب بشري بتدريجٍ سريع.

٤ - المسخ الرابع: هِرْمافْرُودَيْت:

وهو رجل نمت له أعضاء أنثوية كاملة.

٥ - المسخ الخامس: الفراشة:

وهو امرأة فراشة حرفيًا، وهذه الصورة تظهر اكتمال جناحيها، ولا شك أنها أجمل وأرقّ من النساء الطبيعيات. (همهمات وضحكات)

٦ - المسخ السادس: الزَّهرة:

الفتاة التي تحوَّرت بعض خلاياها إلى خلايا نباتية، الصورة تظهر البتلات الملونة النامية من كتفيها وعنقها. (صمت تام)

٧ - المسخ السابع: المزدوَج:

وهو رجل نبتَ له طِفل كامل من ظهره، وبعد شهور سيبدوان كجنينين توأم ملتصقين من الظهر، أحدهما في سن الأربعين والآخر بعمر شهور.

- لقد أثبتت الأبحاث كلها أيها السادة أننا أمام تحورات وراثية عميقة ومدهشة، وفي الجلسة القادمة غدًا سأحاول أن أشرح

بتفصيل أكبر الأساس الجيني لها، اعذروني لو كنت قد أطلت عليكم.

(تصفيق)

• • •

كانت الساعة تلتهم الوقت، وقد أضاع مني ضبط البروجكتور وقتًا إضافيًا..

- والآن نصل إلى ختام هذه الجلسة: نتيجة هذا البحث تقول إن الـ DNA البشري يتعرض لمرحلة من الطفرات السريعة المتنوعة، (تذكرون فيلم الرجال-X / X-men) حيث بدأت الطفرات تغزو الشريط الوراثي البشري، غير أن طفرات الفيلم أنتجت بشكل غير معقول وغير علمي رجالاً خارقين، أما المنطق والواقع فيقول إننا أمام طفرات عشوائية، الرجال الذئاب سيلتهمون الرجال الحملان، والرجال العناكب سيصطادون النساء الفراشات، لن تكون هناك بطولة، سوف نعود إلى حالة الطبيعة بشكل فجّ، سنعود حيواناتٍ وحشراتٍ ونباتاتٍ، حالة من (السَّخْط) البيولوجي العامّ.

قد يتساءل البعض منكم لماذا استخدمت لفظة (نعود)؟ هل بالمعنى الدارْوِني؟ لا، أنا لا أتحدث في سياق الدارونية، بل في سياق أعم

بكثير منها، في الأوراق القادمة سأشرح لكم نظريتي كاملة في هذا الصدد، أرجو أن تسامحوني للإطالة. (تصفيق)

• • •

كان الوقت قد نفد فعلاً إلا أن الحضور ما زال ممتلئًا حماسة لسماع المزيد..

- كما تحدثتُ في الجلسة الأولى عن أن بعض حالات التراتوما لم تكن حالات تراتوما، وفي الثانية عن حالات التحول الوراثي، وفي الثالثة عن التفسير العلمي، تحدثتُ في هذه الجلسة عن نظريتي في نشأة ما أسميته بالـ (الرجال-Y)، وأعود لألخص نظريتي، فكرتي كلها تعتمد على نظرية الفيلسوف الإغريقي أمبيذوقليس **Empedocles**، والذي أقام نظريته في نشأة وتطور الكائنات الحية على قوتين: المجال**Sphere** وهو السيادة التامة للجاذبية الطبيعية حيث تنضغط كل الموجودات في الكون، والإعصار **Whirl**وهو السيطرة التامة للتنافر الطبيعي حيث تتناثر كل الموجودات في الفراغ، وكلا الحالتين لا تسمحان بنشأة الحياة في التضاغط أو التخلخل المطلقين، لكن المراحل الطويلة جدًا بين الحالتين تسمحان، فالتضاغط يبدأ في التفكك تدريجيًا لتنشأ الحياة وتتطور، ثم يسود التفكك المطلق لتنتهي الحياة، ثم يبدأ التجاذب

تدريجيًا في الشتات، لتعود الحياة للنشأة مرة أخرى وتتطور، ثم تموت في التضاغط اللا نهائي، وهكذا.

وفي كل حالة من الحالتين: (من المجال إلى الإعصار)، (من الإعصار إلى المجال) تبدأ الحياة بمسوخ، إنهم ضحايا الانفطار، كأبي الهول والهاربي والهرمافروديت (الخنثى) والقنطور والمينوطور وغيرها، ثم تبدأ في التمايز والانفصال، فأبو الهول يتحول إلى امرأة وأسد، والهاربي تتحول إلى امرأة وطائر، فتسود فترة ذهبية من التمايز هي أعلى مراحل التطور، مثل الفترة التي نعيشها، أو التي كنا نعيشها، وقرب الفناء تبدأ الأشكال في الاندماج والانمساخ لتعود إلى سيرتها الأولى، مجرد مسوخ، مما يؤذن بنهاية العالم[1].

إذن فالعالم يتحرك هكذا: (الرجال-Y)، الرجال، (الرجال-Y)، إلى الأبد، ونحن الآن عرضة لهذه الطفرات، وما لم يجد العلم علاجًا فسوف لن نصير بشرًا بعد جيل واحد من الآن، أشكركم لحسن استماعكم، وأعتذر عن الإطالة. (صمت)

• • •

---

[1] - المعلومات عن نظرية أمبيذوقليس مستفادة بالفعل من المصادر والمراجع المتخصصة.

كنت أتأمل صورة الأشعة حين بدأتُ أراها، التجعيــدات الشــوكية تظهر فوق كل السطوح، سطح المنضدة، سطح مســند الكرســي، سطح الأرضية، سطح الجدران، سطح السقف، سطح جِلْــدي، ثــم رأيت طبيبة تمشي في الطرقة بدينة جدًا جدًا، عرضها لا يقل عــن ثلاثة أمتار، تمشي خلفها ممرضة نحيفــة جــدًا كــالخيط، خــيط ارتسمت عليه ملامحها وملابسها، وكانتا تتحدثان بأصوات غليظة جدًا وحادة جدًا.

الثقل في أطرافي يتزايد، إنني أحمل الأرض، ومن البعيد جاء، من عالم ناءٍ مجهول، أغمضت عينيّ في إصرار، هذه المرة يجــب أن أراه، يجب أن أتأكد.

كنت أقاوم رغبتي الرهيبة في الفرار والبكاء، وأشعر أنني أهــرب مني، أنني لا أعود أنا، أنني أفقدني شيئًا فشــيئًا، كــان موشّــحًا بالظلال والظلام، لكنه - ولأول مرة - بدأ يتكشّف تدريجيًا في نور بلا مصدر، إنه هو، بالضبط كما تبدّى في صور الأشــعة، برأســه الهلامي وأذرعه الثمانية، وممصاته اللزجة.

كان يكبر كل لحظة بلا شك، الآن فقط عرفت أنني لم أكن مجنونًا، فتحتُ عينيّ وأنا أشعر بالصداع، كأنه سينبثق من رأسي، لكنه لن يفعل، أنا أفضَل مَن يعلم أنه لن يفعل، سوف ينمو ثم نصير كائنًــا واحدًا، أوّل رَجُل- أخطبوط، ربما أصــطاد امــرأة - ســمكة، أو

يصطادني رجلٌ - ثعبان بحر، لا يمكننا أن نخمن المستقبل، نحـــن مجرد علماء.

• • •



الكاتب في سطور

- كريم أحمد عبد الباقي الصياد.
- من مواليد القاهرة، ٣٠ نوفمبر ١٩٨١.
- تخرّج في كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم الفلسفة، ويعمل حاليًا معيدًا بالقسم في تخصص الفلسفة الإسلامية.
- عضو مؤسس بجماعة "جُذور" الفلسفية، وأول رئيس لها.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.

- البريد الإلكتروني: Radical_kareem@yahoo.com

• صدر له:

١. الأمْر: ديوان شعر، دار أكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧.

٢. منهجٌ تربويٌّ مقترَحٌ لِفاوست: ديوان شعر، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٩.

٣. ن= ¥ ف: رواية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٠.

٤. اثنتا عشرة عينًا على مَشهد التسلُّط: كتاب في الفلسفة، (تحرير ومشاركة)، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

٥. عدد من الأبحاث الفلسفية المنشورة بمجلة الجمعية الفلسفية المصرية ومجلة "أوراق فلسفية" العلميتين المحكمتين.

• له تحت الطبع:

١. صدام الحفريات: مجموعة روائية.

٢. عدد من الأبحاث الفلسفية.

شمس للنشر والإعلام



رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004/5 - (+2) 0188890065

n



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net